بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على نبيّه وصفيه خاتم المرسلين وبعد:

فقد جاءني عبر شاشات الإنترنت من يطلب مراسلتي ومخاطبتي، وأن أقوم بالرد على الأسئلة التي سيطرحها من جانبه... وقد عرف نفسه بأن قال:

إنني صحفي بإحدى الدول التي تهاجم الإسلام والمسلمين ومحمد رسولكم. ثم سألني عمّـــا إذا كان في الإمكان أن نتراسل ونتحاور وأن أجيبه صراحة على أسئلته التي أعدها سلفاً في هذا الشأن؟ **وأجبته بدوري:**

- هـــذا شئ يسعدني بل يسعد كل المسلمين، المهم أن نصل إلى لب الحقيقة لا أكثر ولا أقل ونعم لدفـء التحاور والتشاور **قال:**
- حسناً ثم قال: إذا سارت الأمور بيننا على ما يرام فأعدك أن أقوم بنشر كل ما سيدور بيننا من حوارات وأحاديث. **قلت:**
- وبـــدوري ســـأبذل كل ما في وسعي في أن أكون صادقاً أميناً ومخلصاً في كل كلمة سأخاطبك بها. **وقلت مؤكداً:**
- أما إذا ما اختلفنا فلنرجع للتاريخ الموثّق، نستوضح الحقيقة ونتبيّن أمرها. قال:
- هذا عهد بيننا **ثم أضاف:**
- ولعل ذلك لا يفسد دفـء الود الذي بيننا كما تقولون في لغتكم العربية، إنكم تمثلون نحـــو خُمـــس أو رُبـــع سكان المعمورة، ومن الواجب والضروري أن يتعرف ويتفهم الآخـــرون حقـــيقة أمركم وطريقة تفكيركم ونمط أسلوبكم في الحياة وقد أصبحتم الـــنموذج الأمـــثل للرعب والبطش والإرهاب، في نظر الشعوب والأمم هنا وهناك. وهنا سألته:
- دعني إذن أتعرف على درجة ثقافتك يا صديقي حتى يستقيم الحوار بيننا قال:
- تمحورت دراساتي حول اللغات الشرقية كافة، ولي قراءات عديدة واجتهادات لا بأس بهـــا عـــن سائر الديانات السماوية والديانات الوضعية، كما وأنني أقمت فترة طويلة

للغايـــة تنقلت خلالها في بلدان الشرق الأدنى والأقصى لتفّهم طبيعة البشر هناك على أرض الواقع.

وسألته بالطبع: وماذا بخصوص الشرق الأوسط؟ قال:

- صـــراحة مررت عليه مر الكرام منقباً عن حضارته القديمة فحسب، وللحقيقة فكم بهـــرني وأذهلني شعبكم في مصر القديمة والذي أعتبره من أعرق وأرقى الشعوب التي آمنت بالبعث والثواب والعقاب بعد الموت.... وإنني على يقين أن تاريخكم في أطوار الاعـــتقاد الـــديني هو تاريخ جميع الأطوار من أدناها إلى أعلاها بلا استثناء.... ولقد أيقـــنت حقـــاً أن أخـــناتون ذلك الفتى العبقري الحالم العاكف على التأمل والتفكير والخلوة لنفسه في صلواته ومناجاته قد أرشدنا لأول مرة كي نعرف صفات الله الذي دعا إلى عبادته دون سواه، فإذا هي أعلى الصفات التي ارتقى إليها فهم البشر قديماً في إدراك كمال **الإله الذي لا شريك له في الملك، وإذا هو بعيد بكماله قريب بآلائه، تسبّح بإسمه الخلائق، كما وأنه هو الوجود وواهب الوجود وهو ملء البصر وملء الفـــؤاد**... والحقـــيقة أنها كانت صحوة ما بعدها صحوة يا صديقي. حقاً لقد بهرني تاريخكم بمصركم القديمة كما بهر غيري من المستشرقين والباحثين.

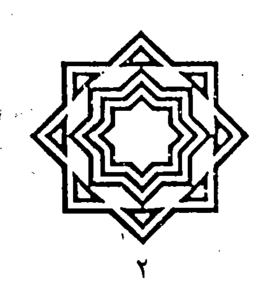
ثم قـــال: ولكن دعني أسألك بدءاً ذي بدء. هل سيتسع لي صدرك حين أهاجمكم وأشدّد النكير على إسلامكم هذه الآونة و ...!!

و لم يكمل عبارته ولكنني استشففتها تماماً فأجبته على الفور:

- علـــى الرحب والسعة، إن الإسلام يدعو لسعة الصدر في المخاطبة والجدال وبالتي هي أحسن. أجابني:

- **حسناً ولنبدأ:**

- **لنبـــدأ:**



حوار حول إله المسلمين

وبدأ حوارنا وقد ابتدأه كالآتي:

- يــرى البعض أن إله المسلمين لا صفه له إلا البطش والجبروت والنقمة والشدة، وأن المــسلمين على مختلف الأزمان والبقاع قد تعلموا منه هذه الصفات وهذه الخلال.فما رأيك؟

أجبته بالقول:

- إذن فلنــتفق يــا صديقي بداية أن هناك خالق لهذا الكون، وأن هذا الكون كما قال فيلسوفكم: آية في الجمال والنظام، ولا يمكن أبداً أن يكون نتيجة علل اتفاقية، بل هو من صنع عاقل كامل قد توخى الخير، رتب كل شئ عن قصد وحكمة. **أجابني:**

- هذا هو رأي أفلاطون على ما أعرف... **أجبته:**

- وهذا هو الرأي عند المسلمين كافة... **سأل:**

- أتؤمنون بذلك؟!! قلت:

- الله في الإسلام هو **"المثل الأعلى"** .. **ليس كمثله شيء**، له صفات القوة والقدرة التي لا تغلب على صفات الرحمة والمحبة.

فهو الخالق لكل شئ القادر على كل شئ

وهو عزيز ذو انتقام ولكنه: رحمان رحيم غفور

رحيم وسعت رحمته كل شئ.. **وأردفت قائلاً:**

- ولعلــك يا صديقي لنرى إذا ما دققت النظر، أن فكرة الله في الإسلام إنما هي المتممة لأفكار عديدة موزعة بين مختلف وسائر العقائد الدينية السابقة، بل وفي شتى المذاهب الفلسفية التي تدور حولها. **سألني:**

- كيف؟! **وأجبت:**

- إن حقيقة الذات الإلهية التي جاء بها الإسلام عن فكر وتمعن وقياس، هي غاية ما يتصوره أو يعقله العقل البشري من **الكمال في أشرف الصفات وأقدسها عن خالقه..**

واسمح لي أن أنقل لك هذه الكلمات لمفكر مصري، إذ يقول في أحد أبحاثه:

"وقد تخيّل بعض المتكلمين في الأديان أن هذا التتريه البالغ يعزل الخالق عن المخلوقات، ويبعد المسافة بين الله والإنسان"

ويستنكر الباحث ذلك الأمر فيؤكد القول:

"**لأن الكمال ليست له حدود، وكل ما ليست له حدود فلا عازل بينه وبين** موجود ..... وفي القرآن الكريم:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

وقوله: **﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾**.

ويستطرد ذلك الباحث قائلاً:-

"ولا شك أن العالم كان في حاجة إلى هذه العقيدة كما كان في حاجة إلى العقيدة المسيحية من قبلها، وتلقى كلتيهما في أوانه المقدور... **فجاء السيد المسيح بصورة جميلة للذات الإلهية** وجاءه محمد – عليه السلام – **بصورة تامة في العقل والشعور**".

ويستطرد أيضاً:

"وربما تلخصت المسيحية كلها في كلمة واحدة هي "**الحب**"، وربما تلخص الإسلام في كلمة واحدة هي "**الحق**"... ودين الحب لم يأت بتشريع جديد، وأن دين الحق لم يكن له مناص من التشريع".

قال محدثي:

- أظن أن هذا الباحث هو الأستاذ العقاد. ثم عقب قائلاً:

- ولكنني أرجو أن تباحثني في النقطة الجوهرية في سؤالي.

قلت:

حسنا.. لقد أردت التمهيد فحسب، والآن يا صديقي العزيز عليك أن تعلم أن الله تعالى لم يذكر اسم **الجبار** إلا في موقع واحد ضمن مجموعة من الأسماء الحسنى. استمع معي لقوله سبحانه في سورة الحشر:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

واستطردت قائلاً:

- وعليك أن تعلم أن اسم الجبار هنا في الآية تعني أنه **صاحب السطوة التي يخضع الآخرين لإرادته** ويجبرهم أيضاً على ما يريد، وقد وضعت بين صفتي "**العزيز**" و "**المتكبر**"، وهي دون أدنى شك صفة مطلوبة لتهديد الطغاة المستكبرين في سائر بقاع الدنيا بغير حق، وذلك كي يعلموا حجمهم في مقابلة قوة الخالق الذي لا يعجزه شئ في بقاع الأرض أو في علياء السماء.

قال محدثي:

- وماذا عن صفة **القهار**؟!

أجبته:

- هذه الصفة – وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً – قد وردت ست مرات في سياقات مختلفة تقتضيها، فلقد وردت في قصة يوسف عليه السلام حيث قال للسجينين اللذين معه وكانا من عبدة الأوثان:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ وقد قصد يوسف عليه السلام أن يقارنا بين آلهتهم المزعومة وبين الله جل ثناؤه وتعالت أسماؤه، كما أنك ترى في سورة (ص) حين يأمر الإله العظيم رسوله أن ينفي عن نفسه

أي صفة من صفات الإلهية، وأن الإله الحق هو الله الواحد القهار، فقد ورد في النص:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ فهذه الصفات وهذه الأسماء قد وضعت في سياقها كي تحقق معنى معيناً وتظهر هدفاً بذاته.

ثم جاء السؤال من محدثي:

- والمنتقم؟!! **أجبته:**

- لم ترد منفردة أيّها الدارس والباحث في اللغات الشرقية، إنما وردت بصيغة أخرى، فقد وردت هكذا "ذو انتقام" وذلك في سياق الوعيد للمشركين والكفرة والظالمين في مواقفهم من الأنبياء والمرسلين، ولقد ورد في سورة إبراهيم:

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ .

واستطردت قائلاً:

- ثم أنك لتجد أن **صفة الرحمن قد تكررت سبعاً وخمسين مرة والرحيم خمساً وتسعين مرة، وكذلك أرحم الراحمين خمس مرات**.. وهكذا.. كما استطردت قائلاً:

- ثم أنك لتجد **أن خطوط المنهج القرآني الكريم في بناء الفرد والمجتمع لا يتصل أبداً بأي معنى من معاني العدوان أو التشدد أو العنف أو الإرهاب** حتى تطلقون عليه مصطلح "**موفياً الإسلام**"!! بل هو في كل خطوط مناهجه يفيض رحمة ولطفاً واستقامة وعدلاً وحباً وخيراً وحقاً .

تأمل معي قول من جل ثناؤه وتعالت أسماؤه: "أنا الرحمن خلقت **الرحم** شققت له اسمان من اسمي، من يصلها أصله ومن يقطعها أقطعه فأبته" قال: قل المزيد: .....

إليك هذا الحديث القدسي، يقول رب العزة والقدرة:

- **"أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً، وإن اقترب مني ذراعاً اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة".**

وتأمل معي أيها المستشرق قوله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام:

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وكـــذلك: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ وفي صحيح الحديث أيها المستشرق، قـــال ﷺ: "جعـــل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنه تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جـــزءاً واحـــداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه".

هـــذا هـــو إله المسلمين الذي يحمل صفات الرحمة والكمال والعلو والتنزيه في ديانة تعتـــبر خاتمة الرسالات، ديانة حرصت على أن تواكب نضوج العقل البشري.... ولتعد ذاكـــرتك إلى العهـــد القـــديم حيث تقرأ: أن الإله يتعارك مع يعقوب فيكسر له يعقوب حرقفته؟!!. الله في الإسلام يا صاح كمال مطلق في جميع الصفات: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ صدق الله العظيم.

وعلـــيك أن تتذكر دوماً: "**ليس كمثله شئ**"، وأود أن أبين لك حقيقة على جانب كبير من الأهمية، ألا وهي: أن **المسلم** يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الله موجود داخل نفسه...

واستفهم محدثي لفوره: بمعنى؟!!

-... بمعنى أن المسلم – المسلم الحق – يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الله جل شأنه موجود في كل شئ حيّ فعال، بل هو موجود في كل شئ كائناً من كان.

- ومن ثم؟!!

- ومن ثمّ فإن اتجاه المسلم نحو داخله وعنايته به وحرصه الدائم على بقاء هذا الداخل نظيفاً طاهـــراً سليماً رحيماً إنما هو في حقيقة الأمر نزوع إسلامي محض، يدفعه إلى بقاء ونقاء إحساسه بوجود الخالق سبحانه وتعالى، وناهيك عن أثر ذلك الأمر عندما يستغرق وعياً وذاكرة وإرادة وتنفيذاً، سواء في شئونه الخاصة، أو في شئون غيره من سائر المخلوقات

والكائـــنات، إنه "**الضمير الإسلامي**" المنبثق من "**العقل الجمعي**" الذي يميّز هذه الأمة عن غيرهـــا، مـــن ســـائر الأمـــم، والـــتي وصـــفها رب العـــزة في محكـــم تتريلـــه:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾

ومن أصدق مَن الله قيلاً يا صاح؟!!! من؟!!

واستطردت القول:

- ولقـــد جاء **السلام** يا صديقي عنواناً على "**جنة الخلد**" في الآخرة فأطلق عليها "**دار السلام**".. ومن يدخل من كل باب يردد على أهلها: "**سلام عليكم**".

والآن دعني أسألك:

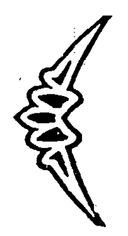
- ألا تـــرى معي أن **السلام** هو شعار الحياة الإسلامية..؟! وأن المسلمين كما ورد في النص القرآني في آخر سورة الفرقان:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ وأخيراً فليعلم من تعاطى مهاجمة الإسلام صناعة وغرّ به الغرور وظن أنه قادر على ذلك وشمر في ذلك حمية وعصبية، ليعلم:

- أن قبول التوبة ومغفرة الذنوب في الإسلام **رحمة**. أي رحمة!!
- وأن التيسير في التشريع الإلهي في هذا الدين الحنيف **رحمة**. أي رحمة!!
- وأن النبوة **رحمة** لأن بها بيان الحق من الباطل والهدى من الضلال.
- وأن البعث في الآخرة **رحمة**، فقد جعل الله للمرء موعداً للقائه لن يخلف، فتنجلي فـــيه الحقيقة الكبرى، ويقدم كل إنسان كتاب أقواله وأفعاله لا يغادر صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها وما ربك بظلام للعبيد.

- ما رأيك؟!!

وهنا طال صمت محدثي أستاذ اللغات الشرقية و لم ينطق ببنت شفة.



حوار حول رسول المسلمين

وفي اليوم التالي تساءل أستاذ اللغات الشرقية:

- ورسولكم محمد.. ألم يكن رجل عنف ورجل حرب، نشر الإيمان والإسلام عن طريق السيف، إنني أتصوره رجلاً متعصباً عنيفاً عدوانياً... فما قولك؟! أجبته بالقول:

- تلــك هـــي الصورة الضبابية الظلامية التي يثيرها من تعاطى مهاجمته صناعة، فرسم لشخـــصه الكريم ما لا يليق تحت شعار حرية الرأي، واسمح لي أن أعزو ذلك لسبب بسيط للغاية.

فقـــد اســـتطاع نبي الهدى أن يقوض الفكر الغربي من أساسه! فيما يتعلق بخصوص **مركزية الإنسان.**

وتساءل على الفور أستاذ اللغات الشرقية.

- كيف ذلك؟!!! **قلت:**

- لقد كانت نظرية الغرب عامة تقوم أساساً على **مركزية الإنسان** والتي بدأت سلفاً في التشكل في عصر النهضة ورسخت مبادئها إبان الحروب الصليبية التي كانت بمثابة رد فعـــل جماعـــي تقـــوم به أوروبا الجديدة، ولقد نقل نبي الهدى هذه المركزية **لمحبة الله وعبادته في حياة البشر.**

وأحسست أن محدثي قد استشاط غضباً فأردفت:

- لقـــد اتفقـــنا على أن الخلاف لن يفسد ما بيننا، سأشير عليك بالرجوع إلى الكاتبة الـــبريطانية كارين أرمسترونج فعندها المزيد في ذلك، وكذلك مارجلوت Margloot وغيرهما: ثم جاء التساؤل:

- وما الرأي في غزوات رسولكم وسراياه؟!!

أجبته قائلاً:

- حسناً سأحدثك عنها لترى العجب العاجب ولكن لتعلم مقدماً أن الرسول كان طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق..!! قال:
- وإنني لمتشوق لذلك.

قلت:

- إن مجموع الغزوات التي غزاها الرسول سبعاً وعشرين غزوة حارب في تسع منها، ولقد كانت كلها ضرورة لبقاء الإسلام.
- ولعلك تعجب إذا علمت أن الرسول لم يسمّ هذه الحروب باسم يدل على تعطشه للدماء كما يقول المستشرقون، كأن يقول على سبيل المثال: "سفك دماء" أو "قطع رقاب" أو ما شابه ذلك، وإنما أسماها، **المشقة**. و لم يجعل ذلك ركناً من أركان الإسلام قط.

أما عن السرايا فقد كانت مهمتها رصد أخبار العدو واستجلاء أمره، وهي تقدر بثمان وثلاثين سرية . وهنا قال محدثي:

- ولكن دعني أقول أن المسلمين بعد استقرارهم بالمدينة قاموا بعدة حروب هجومية على مخالفيهم من أجل نشر الإسلام بالقوة الجبرية المطلقة. فما رأيك؟! وأجبته بقولي:
- دعني أولاً أن أوضح لك حقيقة على جانب كبير من الأهمية فلقد وردت في كتاب الله آيات تزيد على **مائة وعشرون آية تفيد كلها أن نشر الإسلام أساسه الإقناع الهادئ، وترك الناس أحراراً بعد عرض الدعوة الإسلامية عليهم**، بعد ذلك لهم الخيار المطلق فإما أن يقبلوها أو يردوها. ولا شك أنك يا أستاذ اللغات الشرقية تعلم تماماً أن رسول الإسلام قد اعترف بوجود اليهود في المدينة وعقد معهم عقود الصلح والمهادنة، واسمح لي أن أذكرك هنا بأن تقرأ كتاب القائد العسكري الكندي المدعو

ولسيم غاي كار والذي أطلق عليه: "اليهود وراء كل جريمة"، كي تعرف من الذي خان عهود الرسول بل وغير الرسول عبر التاريخ كله.

- نعود للغزوات.. ألا ترى معي أنها كانت من أجل المال وتحقيق مغانم مادية؟!

أجبته بالقول:

- لو كان الأمر كذلك لاعترض المسلمون جميع القوافل التي تمر على يثرب وهي تربو على الخمسمائة قافلة في العام الواحد، غير أنهم قد اكتفوا **بقوافل قبائل قريش**، لأنهم قد أُجبروا على مغادرة مكة عند الهجرة وترك أموالهم وبيوتهم وأغنامهم، كما استولى كفار قريش على كافة ممتلكاتهم، وبهذا أصبح من حق المهاجرين المسلمين استردادها، ولا سبيل في ذلك سوى القوة، ولقد بدأت هذه القوة تظهر رويداً رويداً في أربعة مواقع تمهيدية لاسترداد الحقوق. هذه المواقع هي:

- الأبواء.
- بواط.
- العشيرة.
- بدر الأولى.

لذا فهم ليسوا قطاع طرق كما يدعي بعض المستشرقين، وحسبي أن أرد بالقول: إذ كانت غزوات الرسول من أجل جمع الغنائم والأموال، فأين هي هذه الأموال يوم أن توفى ولم يترك لأهل بيته – وهو حاكم أكبر دولة في الجزيرة العربية – لم يترك ديناراً واحداً ولا عبداً ولا شاه!!! .... حتى سلاحه فقد كان مرهوناً ليهودي، أما أرضه فقد تركها صدقة لابن السبيل والمحتاج.... لم يكن يملك رسول المسلمين سوى سبعة دنانير تصدّق بها للمساكين والمعوزين...

وإنه يمكنك أن تقول عن تلك الغزوات أنها **وقائع حربية** خاضها رسول الإسلام من أجـــل **الـــدفاع عن الإسلام وأرض الإسلام وأعراض المسلمين**، ولقد نصر الله المؤمنين في كافة هذه المعـــارك وفق النص القـــرآني من ســـورة الروم: ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ولما جاء كذلك في ســـورة الصـــافات: ﴿ **وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ** ﴾ وكمـــا ورد في ســـورة التـــوبة: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ **فالسلم في الإسلام أصل من أصوله والحرب في طبيعتها شئ طارئ.**

وهنا سأل محدثي أستاذ اللغات الشرقية:

- إذا كان الأمر كذلك وأن النصر كان دائماً أبداً حليفكم فما قولك في هزيمة أحد؟!!

قلت:

- دعـــني أســـألك: إذا كان النصر قد عقد للمشركين في نهاية الأمر فلماذا لم يدخلوا المدينة؟!... تلك المدينة الفاضلة التي أسسها المصطفى والتي حقق فيها أحلام وخواطر الحكمـــاء والمفكـــرين والمـــصلحين، حيث تكامل التشريع مع التقنية، ثم التقنية مع التثقيف، والتثقيف مع التربية لماذا لم يدخلوها؟!

دعـــني أقول لك إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يدخلها الكفار وقد كانت دون دفـــاع يذكر، ولو كان الأمر كذلك فلماذا تعقب المسلمون "الكفار" في اليوم التالي حتى موقـــع حمراء الأسد، ثم سؤال جوهري: هل يثبت المغلوب في أرض القتال في حين يولي المنتصر الأدبار والفرار؟!! وهل عادا المشركون بأسير مسلم، أو أية غنائم أخرى؟!

إن الحقيقة التي غفل عنها جل المستشرقون أن موقعة أحد كانت بمثابة **"مثوبة"** لصبر رسول الله بعد أن فقد رفيق الطفولة حمزة بن عبد المطلب.

أو لعلها تحقيقاً بيّنا للآية التي أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في أكثر من سبعين أية وكمـــا جاء في النص القرآني: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ** ﴾ ؟!

وكما تعلم أو كما ينبغي أن الرسول المجتبى كان يكره مجرد حرب، ولا يحب سماعها وكـــان رســـول الهدى يردد دوماً: **"لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا"** ... تمعن العبارة يا صديقي: **"لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا"**.

كما كان يردد:

"إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف" وتمعن أيضاً: **"وكفى الله المؤمنين القتال"**.

لك الله يا نور الحياة وشرفها فقد سجلت على أوراق الدهر أعمالاً تجل عن الحصر، وتركت عليها آثاراً خلا عن نظائرها الغابر والحاضر، وقد يخلوا المستقبل عن مثلها.

إنه نبي الرحمة والمرحمة والملحمة. وعقّب محدثي على قولي:

- أنتم بلغاء فصحاء بلغتكم العربية دون أدنى شك يا صاح وأظن أنه من أجل هذا فقد تنزّل القرآن بها، لقد درستها وأعجبت بها كل الإعجاب إنها لغة الفصاحة والجمال... لنستكمل حديثا عن الغزوات. قلت:

- حسنا... لنستمع سوياً إلى ما قاله **توماس كارليل.**

تساءل محدثي:

- ماذا قال؟! **قلت:**

- **إن اتهامه – بقصد الرسول – بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم، إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو لكي يستجيبوا لدعوته، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها.**

وتأمل كيف سار الرسول على نهج الآية الكريمة في سورة الأنفال: ﴿ **وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ** ﴾ تراه يخرج لملاقاة الروم عندما بلغه أن جموعهم قد تجمعت على أطراف الجزيرة وأنها تبغي الهجوم وتتهيأ له تماماً، وحين وصل الرسول إلى تبوك كانت جيوش الروم قد بدأت في التراجع فعاد أدراجه إلى المدينة و لم يفكر قط في الهجوم عليهم ومباغتتهم.

وحقاً فإن رسول الهدى فوق دواعي الدفاع أو الزّود عنه، بل تقصر الكلمات دون أوصافه.

وجاءت كلمات محدثي ثائرة:

- ولكنه ألم يحرض الرسول المؤمنين على قتال الفرس والروم؟!

وأجبته:

- سأخبرك بالحقيقة، فلقد كتب نبي الرحمة لملوكهم وأمرائهم يبلغهم دعوته بالحسنى فهل قرأت هذه الرسائل؟!!

أجابني: قرأتها.

وقدّمت له بعضاً منها:

بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد رسول الله إلى النجاشي
عظيم الحبشة السلام على من اتبع
الهدى أما بعد فإني أحمد إليك
الله الذي لا إله إلا هو الملك
القدوس السلام المؤمن المهيمن
وأشهد أن عيسى بن مريم روح
الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول
الطيبة الحصينة فحملت بعيسى
من روحه ونفخه كما خلق آدم
بيده وإني أدعوك إلى الله وحده
لا شريك له والموالاة على طاعته وأن
تتبعني وتوقن بالذي جاءني فإني
رسول الله وإني أدعوك
وجنودك إلى الله عز وجل وقد
بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي
والسلام على من اتبع الهدى

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد
الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط
سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني
أدعوك بدعاية الإسلام أسلم
تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن
توليت فعليك إثم كل القبط يا
أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة
سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا
الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ
بعضنا بعضا أربابا من دون الله
فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا
مسلمون

محمد رسول الله

قلت:

- ومـــا رأيك فيما جرى لهرقل ملك الروم، ألم يكن يميل ميلاً شديداً للإسلام لولا أن عظمـــة الملك قد منعته عن الإذعان للحق، وكذلك خاصته من رجال الدين المسيحي والذين تهيأوا لغزو حدود العرب جميعاً.
- فماذا فعل الرسول؟!

لقـــد استنفر جميع القبائل العربية للذود عن ديارهم وحماية أراضيهم. وكذلك الحال مع المقوقس حاكم مصر الذي اقتنع بالإسلام ولكنه تردد في القبول فقد كان يظن أن النبي المرتقب سيخرج من بلاد الشام.

وكـــذلك النجاشـــي ملك الحبشة الذي آمن هو بالإسلام و لم يؤمن قومه وكذلك لأســـقف نجران الذي فزع فزعاً شديداً بعد أن قرأ رسالة الرسول ﷺ، وجمع مستشاريه يـــسألهم الـــرأي فاتفقـــوا أن يبعثوا بوفد إلى المدينة ليقابلوا رسول الله... وهناك أعلنوا إسلامهم طواعية تأمل وتمعن يا صديقي التاريخ، وهو شاهد حق وعدل.. ثم قلت:

- كما كتب إلى أمير غسان الذي خرج عن التقاليد المرعبة بعدم قتل الرسل ولكنه فعل ذلك.

وســـألت محدثي: **فأين موقع التحريض يا صديقي؟!!** وليتك تتمّعن جيداً معي فيما سأردده عليك.

فها هو الباحث الأمريكي ميشيل هارت يقول:

لقـــد كانت سيوف المغول تبرق في الظلام لمجـــرد الغـــزو، أما سيوف المسلمين فقد كانـــت كمـــشرط الجـــراح تبرق بفكرة الـــشفاء والخـــلاص من الألم... ثم يصل للحقـــيقة المؤكدة الراسخة فيردد: "وهذا هـــو الـــسر في ذهاب فتوح المغول وبقاء الفتوحات الإسلامية".

ولتسمع معي قول العقاد في هذا الشأن إذ يقول: "**فهذا حق السيف كما استخدمه الإسلام في أشد الأوقات حاجة إليه... حق السيف مرادف لحق الحياة، وكلما أوجب الإسلام فإنما أوجبه لأنه مضطر إليه، أو مضطر إلى التخلي عن حقه في الحياة وحقه في حـــرية الدعـــوة والاعتقاد، فإن يكن درءاً للعدوان والإفتيات على حق الحياة وحق الحرية، فالإسلام في كلمتين: هو "دين السلام"**

ولنستمع معاً لرأي العالم المسلم أبو الحسن الندوي يقول:

"**كـــان الإنسان قبل البعثة المحمدية جاهلاً لهدفه الحقيقي، لا يدري إلى أين يتجه وإلى أيـــن المـــصير، وما هو المجال الأفضل والحقيقي لمواهبه وطاقاته وجهوده... فجاء محمد ﷺ وجعل غايته الأخيرة: الحقيقة، وهدفه الأعلى المنشود نصب عينيه وأرسخ في قلـــب الإنسان أن المجال الحقيقي لجهاده واجتهاده ومواهبه وأشواقه وطموحه وسموه هـــو: معـــرفة فاطر السماوات والأرض واطلاع على صفاته وقدرته وحكمته وسعة ملكوت السماوات والأرض وعظمتها وخلودها، والفوز برضوان الله وحده والرضا به وبقـــدره... وتلك هي السعادة الحقيقية للإنسان ونهاية كماله ومعراج قلبه وروحه... حقاً لقد تغيرت الدنيا بعد بعثة النبي ﷺ**   وهنا قال محدثي:

- عودة للغزوات   أجبته.

- لا بـــأس... كما أوضحت لك: أن الثابت تاريخياً أن هذه الغزوات أو تلك المواقع **لم تكـــن لانـــتقام أو ســـيطرة أو لقهـــر أو تحكم**، والدليل على ذلك أنه حين أخرج المـــشركون "المهاجـــرين" مـــن ديارهم إلى الحبشة ومن الباقين من قضى نحبه بأيدي المـــشركين، ومـــنهم من اضطر لهجرة جديدة... وقد تركوا مساكنهم وأموالهم نهبة للطامعين كي ينجو بدينهم وإيمانهم، ولم يتبق لرسول الإسلام دار ولا مستقر، وصنع

أعـــداؤه وأعداء دينه الظروف التي تجعل الحروب ضرورة لا مناص منها، فماذا فعل الهادي الأعظم مع هؤلاء المشركين؟....

وجاءني الرد بعد قليل:

- كان لا بد من الغزو... **واستطردت قائلاً:**

- أجل... ولكن وفق قواعد الدين الحنيف، تلك **القواعد** التي مهدت فيما بعد للقانون الدولي بين سائر الشعوب والأمم... من هذه القواعد يا صديقي.

القصد الشديد في سفك الدماء وتفادي الصدام ما أمكن:

- فإما بالعفو عن العدو.
- وإما بالأمر بتفادي الحرب معه.
- وإما بإسلامه قبل منازلته.
- وإما بالنبذ إليه قبل مهاجمته أو انتظار الآذان.

واستطردت:

لقـــد باغـــت المصطفى مكة مرتين متعاقبتين في عامين، ليأخذ أهلها أخذ الفجاءة، فيمـــنعهم مـــن التعبئة للحرب فحماهم بذلك من أنفسهم، ومنع سفك الدماء في أرض الحرم، ولقد آمن أهلها بعد فتحها وتترك لهم ما غصبوه من ديار المهاجرين.

فهل رأيت يا صاح في باب التسامح والمسالمة أفسح من هذا الأفق؟!!

ثم أن المعجـــزة الكـــبرى التي تتضاءل معها معجزات "المواقع" أن عدد الشهداء في غـــزوات الرسول قاطبة من المؤمنين والمشركين لم يزد عن **واحد وأربعين ومائة** رجل، وذلك طوال السنوات العشر، فما رأيك؟!

كما كان رسول الهدى يوصي الأمير بالتقوى في خاصة نفسه وفيما تحت إمرته، بل وفي العـــدو وأهلـــه فـــيقول: **"تألفـــوا الناس وتأتوهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم للإسلام، فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر أن تأتوني بهم مسلمين أحب إلي من أن تقتلوا رجالهم وتأتوني بنسائهم".**

كما كان يقول عليه الصلاة وأذكى السلام:

"أغزو بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمـــثلوا ولا تقتلوا وليدا. فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخـــبرهم أنهـــم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يـــتحولوا فأخـــبرهم أنهم يكونوا كأعراب مسلمين يجرى عليهم حكم الله تعالى الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة شئ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين وإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم....."

وأضفت القول:

وقد حدث في سرية قادها عبد الرحمن بن عوف، فقد أمره رسول الله ﷺ أن يتزوج بنت الملك كي يتألفه وقومه.

وفي سرية أخرى قتل المقداد رجلاً قال لا إله إلا الله، وقد ظن أن قوله هذا ما هو إلا حيلة للدفاع عن نفسه، ولما علم المصطفى صلاة الله وسلامه عليه بذلك آخذه **لأن الرجل قد أعلن ركن الإسلام، وحسب الإسلام ما يظهره المرء.**

وهكذا ترى يا صاح وكما سيتضح لك أن المسلمين إذا ما سلّوا السيف سلوه بقانون وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون، وأن الإسلام كان يكره دائماً حرب الاعتداء تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

وتطبيقاً لسنة رسوله في حديثه الشريف: **"ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من تمالك نفسه عند الغضب".**

وهنا تساءل أستاذ اللغات الشرقية:

- ولكـــن مـــاذا بخصوص سرية عبد الله بن جحش الأسدي والتي كانت في رجب من السنة الثانية للهجرة. ؟!

أجبته بقولي:

- لقـــد كـــنت أنتظـــر ســـؤالك هذا، ولا شك أنك تقصد مقاصد من سبقك من المستشرقين!!

قال:

- أجل.... أقصد قتال المسلمين في الشهر الحرام

أجبته:

- سأوضـــح لك الأمر تماماً... القرآن الكريم يرد صراحة على سؤال المؤمنين عن ذلك: هل القتال في الأشهر الحرم من الكبائر؟!

ولقـــد كـــان هذا الحادث حقاً جديد من نوعه، كما يعده الباحثون مفترق طرق في سياســـة الإســـلام المستقبلية، ولقد كانت إجابة رب العزة **بأنه كذلك وأنه لأمر كبير، ولكن هناك ما هو أكبر من هذا الأمر.**

وتساءل محدثي:

- ألا وهو؟! **قلت:**

- الصّد عن سبيل الله.... **وتساءلت:**

- ألا تعتـــبر يـــا صـــاح أن الكفر بالله أكبر من القتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام والقتل فيه.

ولم يجب فأضفت قائلاً:

- وإذا كـــان المـــشركون – وقريش بطبيعة الحال في مقدمتهم – يرتكبون هذه الكبائر جميعاً ويخرجون أهل المسجد الحرام منه ويفتنونهم عن دينهم. فماذا هم بفاعلين؟...

- ألا ترى معي أن لا جناح على من تقع عليه أوزارهم وكبائرهم هذه إن هو قاتلهم في الشهر الحرام!!... إنما الكبيرة أن يقاتل في الأشهر الحرم **من لا يجترح من هذه الأوزار وزراً**، على حد قول أحد الباحثين. **قال محدثي:**

- هـــل لي أن أستوضـــح أثر هذه السرية التي أخبرتني عنها بأنها مفترق طرق في سياسة إسلامكم؟!

أجبت:

- لا بـــأس... في هذه السرية اتخذ رسول الله أسلوباً جديداً كي يضمن سِريَّتها، حيث تمـــضي الـــسرية ولا يعلم أحد وجهتها بما في ذلك قائدها نفسه الذي أعطاه الرسول كتاباً وطلب منه ألا يفضّه حتى يصل إلى مكان أخبره به. وتسأل محدثي:

- ولكن متى كانت هذه السرية على وجه التحديد؟!

قلت:

- سأجيبك... إن معظم كتب السيرة تذكر أن هذه السرية كانت في شهر رجب إلا أن مـــا نزل بشأنها من القرآن يقطع قطعاً جازماً حاسماً بأنها بعد تحويل القبلة، وبناء على ذلك فتكون قد دفعت في أواخر شهر شعبان **واستطردت:**

ولما فتح عبد الله كتاب الرسول قرأ فيه:

"إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، فتربّص بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم"

وأخـــبر قائد السرية أصحابه بما ورد في كتاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وصـــارحهم – (وكانوا ثمانية من المهاجرين) أن من كره المهمة لخطورتها فليرجع عائداً، ومضوا (فيما عدا سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان إذ مضيا يبحثان عن بعير ضل لهما وضلا الطريق).

وحين نزل الباقون بنخلة مرت بهم عير لقريش تحمل تجارة يحرسها كل من:

- عمرو بن الحضرمي.
- عثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل.
- الحكم بن كيسان.

وهنا تشاور مهاجرو السرية.

قال قائل منهم:

- والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتَنِعُنَّ منكم به.

وتـــرددوا كثيراً في الأمر بين كر وفر، ثم أجمعوا على قتالهم، وهنا أمسك المهاجر وافد بن عبد الله بسهمه وأصاب عمرو بن الحضرمي في مقتل، وأسرع نوفل بالفرار ووقع في الأسر: عثمان والحكم

وعـــاد عبد الله بن جحش بالأسيرين والعير للمدينة، وما أن رآهم نبي الرحمة حتى ابتدرهم بقوله:

- **ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام.**

وأبى أن يأخذ الأسيرين والعير.

وهـــنا ظـــن عـــبد الله وصحبه أنهم قد هلكوا، خاصة وأن إخوانهم من المسلمين عـــنّفوهم فـــيما صنعوا... وانتهزت قريش الفرصة السانحة فنادت في كل مكان (ومعهم بطبيعة الحال يهود المدينة) نادوا قائلين.

"إن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدماء وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال وهتفوا مهللين:

- عمرو عمرت الحرب.
- الحضر حضرت الحرب
- واقد وقدت الحرب

وهنا جاء فصل القول في سورة البقرة من العزيز الحكيم:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ ﴾.

وهكذا حكم الله عز وجل بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، فالعزيز الحكيم لم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركين أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام، فهم أحق بالذم والعقوبة.

وهكـــذا تصبح **الفتنة أكبر من القتل**، وأنه مِن حق على مَن يرى غيره يحاول فتنته عـــن ديـــنه أن يقاتـــل في ســـبيل الله... حـــتى يُنصر دين الله... دين القلوب والعقول والـــضمائر... دين الحق والخير والرحمة... دين الفطرة والحب والجمال... دين الوجدان النقي والروح الطاهرة... دين أسمى الروابط وأنقاها وأخلدها التي لا تعرف نفاقاً ولا تخفي

غرضـــاً مشبوهاً ولا تتلون مع السراء والضراء أبداً ... ذلك لأنها خالصة لوجه الله تعالى جل ثناؤه وتعالت أسماؤه.

ديـــن السلام أينما وحينما وجد، ذلك لأن الدليل والبرهان هما سلاح القرآن في الانتصار على الخصوم وليس السيف والرمح كما يدعي المبطلون... وكفى الإسلام فخراً أيهـــا المستـــشرق أن التتار وأنت تعلم من هم التتار قد استبدلوا قانونهم الشهير المسمى "إلياســـا" بالشريعة الإسلامية السمحاء، وحسبي أنْ أردد لك قول رجل القانون والطب والسياسة والأدب يوهان فولفجانج جوته:

"إذا كان الإسلام يعني التعبد لله فإننا جميعاً نعيش ونموت مسلمين".

وتساءل محدثي مستوضحاً:

- أتـــسمح لي أن أستوضحك في معنى هذه الكلمة، كلمة **فتنة** كما تفهمونها في دينكم فهي تعني عندي مفاهيم ومعان كثيرة؟!

أجبت:

- الفتنة في سياقها الديني تعني **قتل الضمير في الإنسان**، ولك أن تتخيل كيف يمكن أن يكون حال الإنسان إن صار بلا ضمير، خاصة لو كان مسلماً مؤمناً لوجه الله تعالى.

وسأل أستاذ اللغات الشرقية

- لنعد إلى حوارنا عن غزوات الرسول خاصة بعد أن استقر به الحال في المدينة؟!

أجبت:

- تقـــصد بعد أن أسس الرسول تلك المدينة الفاضلة وألغى العنصرية والعصبية والجنسية والقومية واللون وحقق أحلام الفلاسفة والمصلحين والمفكرين في بناء **"المدينة الفاضلة"** وعقـــد ميثاق التحالف الإسلامي وأكد بما لا يدعو أي مجال للشك أن النبوة تعليم لا تنجـــيم ومـــثل يحـــتذى به في كل مجال ومقام، ويكفي أن تعلم أنه قد عاهد اليهود وأقـــرهم علـــى دينهم وأموالهم وشرط لهم كما اشترط عليهم والذين كانوا أميل إلى

الإسلام والمسلمين ذلك لأنهم جميعاً يلتقون على الإيمان بالنبوات والإيمان بالبعث وإن اختلفوا في التفاصيل... ولا شك كما تعلم يا صديقي أنهم كانوا أقرب الأمم إلى الإسلام في توحيد ذات الله وصفاته، وأن الإسلام جاء مصدقاً لكتابهم، فالنص القرآن واضح وصريح بسورة البقرة: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ ولكن.... واستفسر أستاذ اللغات الشرقية – ولكن... لكن ماذا؟!

أجبته قائلاً:

- لكن حيث أسلم بعض أحبار اليهود وعلماؤهم مثل عبد الله بن سلام وكذلك تسع وثلاثون من رجالهم، أسرعت قريش للتحالف معهم مرددين "يا معشر اليهود... إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد. أفديننا خير أم دينه؟!

وجاء الرد بلسان أستاذ اللغات الشرقية:

- قال اليهود بل دينكم خير من دينه... وأنتم أولى بالحق.

واستطردت:

- إنني أتعجب ولعلك تتعجب معي، كيف للذين نكبوا بنكبات لا تحصى ولا تعد من تقتيل واضطهاد وتشريد بسبب إيمانهم بإله واحد، كيف يضنون بمبادئهم وعقائدهم من أجل إرضاء مشركين قريش؟!! هنا استطرد أستاذ اللغات الشرقية:

- أظن أنه قد جاءت إشارة صريحة في سورة النساء عن ذلك الأمر.

- أجل... والآن دعنا نعود إلى غزوات الرسول وقد استقر به المقام في **المدينة الفاضلة** وبعد أن جاءه في سورة الحج أول تصريح بالقتال من أجل نشر الدعوة واسترداد

حقوق المهاجرين الذين تحملوا من صنوف العذاب وألوان البلاء ما تعجز الرواسي عن تحملـــه... كـــل ذلك بحرب مشروعة لدفع الظلم ورد العدوان والدفاع عن العرض والأهل والوطن وبدأ الهادي الأعظم في إرسال سراياه من أجل غرضين ألا وهما:

أولاً: تحذير القبائل المجاورة للمدينة من الانحياز لقريش.

ثانياً: عرض الإسلام على هذه القبائل، فإذا أسلموا كانوا قوة للإسلام، وإن أبوا فإنه يعقد معهم معاهدة عدم اعتداء.

والـــثابت تاريخياً أن رسول الهدى قد كسب في السنوات الأولى من الهجرة قبائل عدة منها:

- بني ضمرة.
- جهينة.
- خزاعة.
- غفار.

وذلـــك في الـــوقت الذي أثارت فيه قريش **شبه الجزيرة** على المصطفى... وأيقن الهـــادي الأعظم نبي الرحمة المهداة والنعمة المعطاة أنه لم يبق في مصانعتهم أو في الاتفاق معهم أي رجاء أو أمل.

هنا بدأت سرايا الرسول صلوات الله وسلامه عليه في العمل. وتساءل محدثي:

- كم كان قد مضى من مقام الرسول ومن معه من المهاجرين بالمدينة؟!

أجبته:

- نحو سنة أشهر ثم قلت: وفي هذا الصدد يحدثنا الدكتور محمد حسين هيكل فيقول:

"والراجح عندي أن هذه السرايا الأولى إنما قصد بها إفهام قريش أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهلهم الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوه من الاضطهاد، وتفاهما يقي الطرفين شرور العداوة والبغضاء، ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين، ولأهل مكة سلامة تجارتهم في طريقها إلى الشام...."

ويرد هذا الباحث الموسوعي على من يزعم أن أهل المدينة قد أغرتهم الغنيمة والسلب باتباع محمد (على خلاف عهدهم في العقبة) فيقول:

"هذا كلام مردود... لأن أهل المدينة كأهل مكة لم يكونوا أهل بادية يعيشون على السلب والنهب، وأنهم فوق ذلك كان في طبعهم ما في طبع من يعيشون على الزراعة من حب واستقرار، لا يتحركوا للقتال إلاّ لدافع قوي، أما المهاجرين فكان من حقهم أن يستخلصوا من أيدي قريش ما أخذت من أموالهم، ولكن ذلك لم يكن الدافع لإرسال السرايا والغزوات الأولى، ثم أن القتال لم يشرع في الإسلام ولم يقم به محمد وأصحابه لهذه الغاية البدوية التي يتوهمها المستشرقون، وإنما شرع وقام به محمد وأصحابه حتى لا يفتنهم عن دينهم أحد، وحتى يكون لهم في حرية الدعوة ما يشاءون".

ثم قلت:

ولعل الهادي الأعظم قد أراد بهذه السرايا إشعار اليهود - وهم المتربصون على الدوام – أن للمسلمين قوة قادرة على إخماد أية فتنة أو استفزاز أو تحرش أو تأجيج لعداء...

واستطردت قائلاً:

ولعلك ترى يا أستاذ اللغات الشرقية أن المسلمين إذا سلوا سيفا سلوه بقانون وإذا أغمدوه، أغمدوه بقانون ذلك لأن فكرة الحرب عندهم لم تكن إلا للدفاع عن النفس وعن العقيدة والدعوة إليها، كما أنها ترعى الحرمات الإنسانية تطبيقاً للنص الإلهي في سورة المائـــدة: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

كما يقول المولى في ســورة الممتحنة: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾.

وهكذا ترى يا صديقي أن القرآن الكريم يأمر المسلمين **بإعداد أقصى ما يمكن من وسائل القوة لا لشن الحروب على المخالفين، ولكن من أجل تخويف من تحدثه نفسه بالعدوان**، ووفق المبدأ السماوي الذي ورد في سورة البقرة:

﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

وأن المسلم لا يقاتل إلا من يقاتله أو يبدؤه بالعدوان، أما إذا ما أبدى العدو ميلا للمسالمة فعلى المسلم أن يستجيب على الفور للأمر الإلهي وكما جاء في سورة الأنفــال:

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ ثم أضفت: استمع إلى هؤلاء المجاهدين وهو يترنمون وقد مضوا للجهاد في سبيل الله ونشر الدعوة:

ركضاً إلى الله بغيـــر زاد إلا التقى وعمل المعـــاد

والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفـــاد

غير النفي والخير والرشاد

وتساءل **محدثي:**

- عمل المعاد بمعنى الحساب في الآخرة؟! **أجبت:**

- أصبت يا أستاذ اللغات الشرقية، وإذن لي أن أسألك عما قال الكولونيل **جيروم** حين ألقـــى بقنبلته الذرية فوق هيروشيما فأباد أكثر من مائة ألف نسمة في لحظات ...... ولم يقل سوى ثلاث كلمات: **رأيت المدينة ودمرتها.** ويا للبون يا صديقي.....

فالقتال لم يشرع به في الإسلام إلا عندما يتجاوز الظالمون المدى ولم يعد ثمة خيار لهم سوى مواجهة حزب الشيطان وجهاً لوجه.

كما وأنه من الثابت – ببرهان الواقع التاريخي – أن الإسلام قد فتح بنفسه أضعاف مـــا فتحه المسلمون، حيث كانت دعوة الحق أقوى من كل سلاح وأمضى من كل قوة وحسبك أن تسمع حين نادى منادي الإسلام:

"من دخل الحرم فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن".

وسألته: ألم تلحظ أن المنادى لم يقل "من دخل الإسلام"؟!!!

أرأيت في باب الرحمة والحب والتسامح أفسح من هذا الأفق أيها المستشرق؟!!

ثم أعقبت القول:

- ولقــد كان قول الفصل في كلمات رسول الهدى وإمام الندى رسول الإسلام وذلك بمكة المكرمة: **"اذهبوا فأنتم الطلقاء"**

فما أسلمت أمة من الأمم وعلى رقاب أهلها السيف يا صديقي، وإنما نشر الإسلام نفسه بنفسه عن طريق قوته الذاتية وروحه الوثابة. ودعني أسألك يا أستاذ اللغات الشرقية:

- مــا العاقبة لو انتشرت العقيدة بالسيف أو الإكراه؟ ألا يؤدي ذلك على انتشار النفاق سراً وعلانية ولعلك تجد إجابة سؤالي هذا حين تم إجبار المسلمين على التنصر بأسبانيا ومطاردة محاكم التفتيش لهم على مدى قرون طويلة؟!!

قال محدثي:

- نعود لغزوات الرسول وسراياه

أجبته قائلاً:

- **لقد كان هدف هذه السرايا كما قلت لك:**

۞ إلقاء الرعب في قلوب المشركين الكفار.

۞ إظهار شوكة المسلمين بما لها من قوة وبأس.

ولقد حققت هذه السرايا أهدافها دون أدنى شك وهددت نشاط قريش التجاري، ونجــح المــسلمون في الحــصول على المال اللازم لشراء الأسلحة كما أنها كانت مجالاً للتدريب العسكري ودراسة مسالك الصحراء الوعرة والفيافي المترامية.

ويحدثنا في هذا الصدد الأديب عبد الحليم الجندي فيقول:

"... كان الرسول ﷺ يعلم القادة والجند قواعد الرحمة لتطــبقها سراياه، وهم إذ يرجعون يؤدون إليه الحساب عمــا وصــاهم به: لا يهاجمون إلا إذا لم يسمعوا آذاناً للصلاة مخافة أن يكون فيمن يهاجمون مسلمين، ويدعون للــسلام قبل أن يلتحموا فلا يحاربون إلا المشركين ولا يغدرون ولا يمثلون ولا يَغُلّون.

قال محدثي:

- لنبدأ بغزوة بدر ما رأيك؟!! .. **قلت:**

- لنــبدأ فهي الغزوة الكبرى التي استقر على أثرها الأمر للمسلمين في بلاد العرب، كما أنهــا كانت مقدمة لوحدة شبة الجزيرة في ظلال الإسلام بل تعتبر في رأي الكثير من المــؤرخين مقدمة الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف التي أقرت في العالم بأسره حــضارة لا تزال – وستظل – ذات أثر عميق في حياته... في هذه المعركة أنجز الله وعده الإلهيْ .

قالَ محدثي:

- ولكن لا تنسى أنها المعركة التي عاتب فيها الإله رسوله على أخذ الفداء من الأسرى، وكان الأجدر بالرسول أن يقضي على هؤلاء الأسرى. فما قولك؟!

- هــذا يؤكد أن القرآن ليس من تأليف الرسول كما يدعي **بوش** الجد الأكبر، ولقد كــان قــتل الأســرى خــيراً من الفداء ذلك لأنها كانت معركة صريحة بين الإيمان والكفر... أو بين الحق والباطل.

.... ودعــني أوضح لك حقيقة فلقد كان الرسول نفحة سماوية أمدها الله بالتأييد وحــباها كريم الصفات لكنه بشر مثلنا، وماذا يمنع من التوجيه السماوي له من حين إلى حين، كما كان من الضروري أيضاً إظهار القوة للمسلمين حتى يرتدع الكفار وينتهوا عن غيهم في هذه المرحلة الحرجة...

وأكملت حديثي:

- ولا تنسى أن هؤلاء الأسرى إذا عادوا للقتال فسيكونوا أشرس وأعنف ما يكونوا ردّاً لكرامتهم الجريحة بالأسر والفداء هذا من جانب، ومن جانب آخر فلقد دبّر المولى عز وجــل ظــروف هذه المعركة لنصرة دينه وإعلاء الحق وإبطال الباطل، كما ألهم نبيه الخروج لاعتراض قافلة قريش في بداية الأمر.

تأمل النص القرآني في سورة الأنفال: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

وسأل أستاذ اللغات الشرقية:

- ولكن بم تسمى قتل اثنين من الأسرى؟! أليس هذا منتهى العنف؟ وألا يتعارض هذا ومبادئكم المعلنة وسلام إسلامكم؟!!

أجبت:

- إذا كان قتل اثنين من حزب الشيطان واللذين كانا جفاة غلاظاً، ساما المسلمين صنوف العذاب ألواناً وألواناً، فبم تسم المجازر الهائلة التي قامت باسم المسيحية مثل مجزرة "سان بارتلمي" التي ذبح فيها الكاثوليك بباريس البروتستنتنيين غدراً وغيلة في أبشع صور الغدر والغيلة؟!!

إذا كان قتل اثنين من حزب الشيطان منتهى العنف، فبم تسمي مجازر الحرب العالمية الأولى والثانية ومجازر الثورة الفرنسية ومجازر محاكم التفتيش ومجزرة "رأيتها ودمرتها" بهيروشيما... وغيرها وغيرها وغيرها...؟!!

غزوة بدر يا صديقي كانت معركة بين الإيمان والكفر... بين الحق والباطل... واستطردت:

إن مشروعية القتال في الإسلام لا تسلب عن وصفه بأنه دين سلام.

وأضفت:

إن الإسلام هو النظام الوحيد في العالم أجمع الذي شرع مبادئ التعايش السلمي العالمي، بل ربما تعلم أن القتال نفسه الذي شرعه إنما هو مبدأ من مبادئ التعايش السلمي العالمي. ما رأيك يا أستاذ اللغات الشرقية؟! أجابني محدثي:

- أوافقك تماماً أن التعايش السلمي إن لم يكن ثمة قوة تحميه وتحرسه من الاعتداء فإنه لا محالة سيتعرض للخطر بل وربما للزوال.

قلت:

- لذا فقد كان لا بد من تشريع... تشريع يكف عنه عبث العابثين وفساد الفاسدين.

ولعلـــك تـــتفق معي أن الإسلام ليس بدعاً في مشروعيته للقتال فما أكثر الأنبياء والرسل الذين قاتلوا في سبيل الله وإعلان أحكامه وشرائعه وتعاليمه أجابني محدثي:

- تلك حقيقة مؤكدة لا جدال فيها...

قلت:

- تأمل معي النص القرآن الحكيم في سورة الحجرات: **﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾**.

فالحقيقة البيّنة في الآية الكريمة أنه لا بد من الإسراع لوقف نزيف الدم، فيأمر رب العزة بقتال الفئة الباغية قبل النظر في أصل النزاع أو الفصل فيه.

وعلق محدثي بقوله وقد استعان بنص قرآني كريم:

- وكان الإنسان أكثر شئ جدلاً.

واستطردت بدوري مستكملاً النص القرآن الذي ألمح إليه.

- بسم الله الرحم الرحيم، يقول المولى عز وجل في سورة الكهف: **﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾**...

ولعلـــك تعلم يا أستاذ الآداب الشرقية أن القرآن الكريم قد أكثر من الأمثال والحجج والمواعظ لأنه على يقين من أن الإنسان بطبعه يميل للجدل والخصومة، ولا ينيب لحق ولا يترجر لموعظة...

هذا الجدل وهذه الخصومة الذي ألمح إليها النص القرآني تراها هذه الآونة واضحة وظاهـــرة للعـــيان في هيئة الأمم المتحدة ومؤسساها، وحسبك أن تتأمل مبادئهم التي تقر الباطل وتزهق الحق كما يوضحها مفكر إسلامي حصيف، إذ يقول:

- إذا كانــت المشكلة المعروضة على هيئة الأمم المتحدة بين دولتين كبرى وصغرى، ضاعت الدولة الصغرى.
- وإذا كانت المشكلة بين دولتين صغيرتين، ضاعت المشكلة.
- وإذا كانت المشكلة بين دولتين كُبريين، ضاعت الأمم المتحدة.

وفي هــذا الصدد أيضاً يحدثنا الدكتور عبد العظيم المطيعي الأســتاذ بجامعــة الأزهــر إذ يقــول: "لذلك فالإسلام – والإســلام وحده – هو الذي يملك صيغة الوفاق الإنساني العالمــي، يملكهــا منهجاً ويملكها سيرة وتاريخاً... ذلك لأن الإســلام هــو الــنظام العالمي الوحيد الذي احتوى على تشريعات يمكن أن يعيش العالم في ظلها في سلام ووئام ولو في شــبر واحــد من الأرض، يهوداً ونصارى ومسلمين بل وملحــدين، إذا رضخوا لتوجيهات الإسلام مع بقائهم على عقائــدهم، دون أن يــضيق ذرعاً بأحد منهم، وهذا ما لا وجود له في أي نظام آخر على وجه الأرض".

كما يقول هذا العالم الجليل:

"... إن مــنهج الدعــوة في الإسلام منهج سلمي هو أبعد ما يكون عن العنف والإرهــاب والإكراه، فالدعاة عليهم البلاغ المبين، والله هو المختص بالحساب، وليس بعد ذلك اعتدال أو رحمة، ومحاولة بعض خصوم الإسلام وقولهم أنه دين إرهابي دموي يــضيق بمخالفيه ذرعاً، ولا يرى لهم إلا القتل إنما هو دعوى فارغة وافتراء شنيع يمليه عليهم الحقد والحسد، ثم الشيطان".

استطردت موضحاً:

تأمل يا صاح قول الله سبحانه وتعالى في سورة الكهف: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

وتأمـــل قوله في سورة طه: ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾

والقـــول في سورة الشورى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾.

وتأمل وتمعن خطابه للرسول ﷺ:

"ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة".

وجاء رد محدثي:

- هذا هو واجب الديانات بوجه عام سماوية كانت أم غير ذلك... **قلت:**
- لقـــد اتفقـــنا بداية أن نتحاور كي نصل للحقيقة ولا شئ سواها.. فهل تأذن لي أن أسألك: أين ورد هذا النص:

"حـــين تقتـــرب من مدينة لتحاربها ادعوها للصلح فإن استجابت وفتحت على يـــديك فكـــل ما فيها عبيد مسّخرون لك، وإن لم تسالمك وحاربتك فحاصرها، فإذا دفعها الرب إلهك إلى يديك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فغنيمة لك".

ولم يجـــب أســـتاذ الآداب الشرقية على سؤالي فاستطردت:- ومن صاحب فكرة استئصال الأمم والشعوب الأخرى وإبادتها؟!!!...

والحروب الصليبية التي أزكي لهيبها المسيحيون دون غيرهم، وظلت جيوشهم باسم الصليب تقاتل وتحارب وتريق الدماء أنهاراً...؟!! من...؟!!

من كان يبارك هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس؟!

ولم يجب أستاذ الآداب الشرقية إلا بكلمات قليلة، إذ قال:

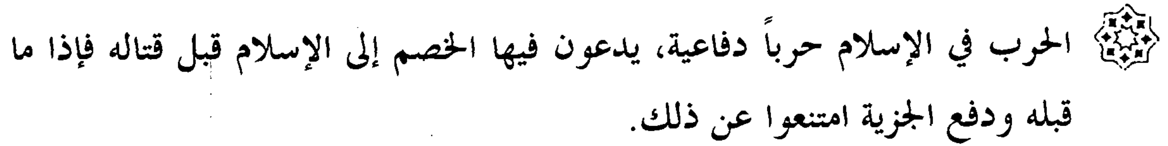
- أظن أن ذلك كان في العصور الوسطى.. عصور الظلام والتخلف.! أجبته بقولي:
- إذن ادعني أحدثك عن مبادئ الحرب كما أوضحها الإسلام قبل عصور الظلام... بل وبعدها... فما رأيك؟! **قال:**

- لا شك أن التنظير يوضح الحقائق ويجليها ويبينها لا سيما لو اتسم بالدقة والموضوعية.

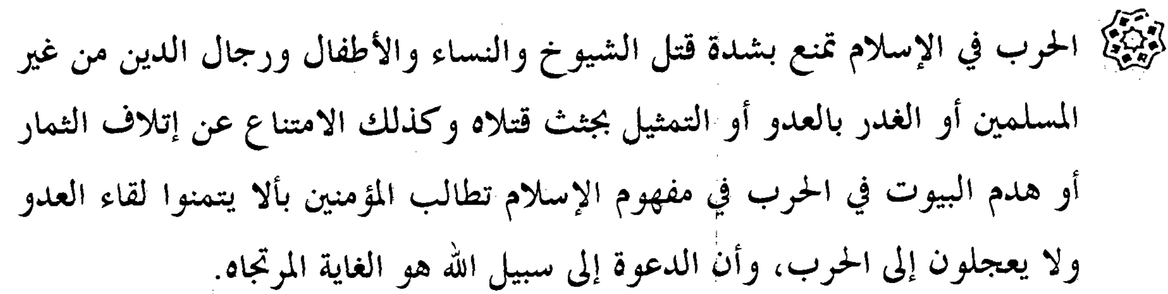
قلت:

- لك ذلك، وسأذكرها في نقاط مختصرة فهي مجرد مبادئ عامة، ولكن تذكر أنها كانت قبل عصور الظلام أي قبل العصور الوسطى.

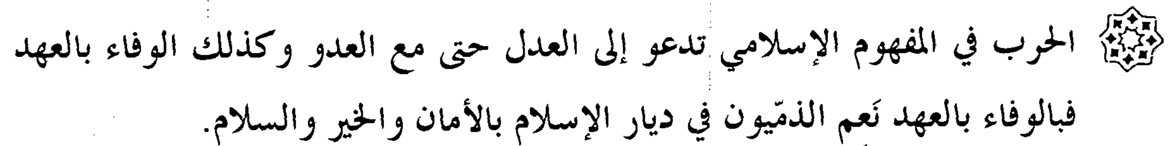
واستطردت موضحاً:



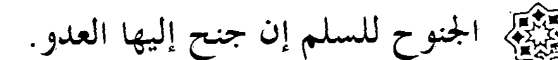
الحرب في الإسلام حرباً دفاعية، يدعون فيها الخصم إلى الإسلام قبل قتاله فإذا ما قبله ودفع الجزية امتنعوا عن ذلك.



الحرب في الإسلام تمنع بشدة قتل الشيوخ والنساء والأطفال ورجال الدين من غير المسلمين أو الغدر بالعدو أو التمثيل بجثث قتلاه وكذلك الامتناع عن إتلاف الثمار أو هدم البيوت في الحرب في مفهوم الإسلام تطالب المؤمنين بألا يتمنوا لقاء العدو ولا يعجلون إلى الحرب، وأن الدعوة إلى سبيل الله هو الغاية المرتجاه.



الحرب في المفهوم الإسلامي تدعو إلى العدل حتى مع العدو وكذلك الوفاء بالعهد فبالوفاء بالعهد نَعِم الذمّيون في ديار الإسلام بالأمان والخير والسلام.



الجنوح للسلم إن جنح إليها العدو.

ثم قلت:

- تأمل... تأمل يا صاح قوله سبحانه وتعالى في سورة (الإنسان) ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ وقوله كذلك في سورة الأنفال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وكذلك قول نبي الهدى: **"استوصوا بالأسارى خيراً"**

وكذلك قوله في الحرب والتي لم تكن قد وضعت أوزارها: **"لا تقتلوا الذرية"، فقالوا له: أليسوا (هم) أولاد المشركين؟!**

فكان رد رسول الهدى:

- أو ليس خياركم أولاد المشركين؟!

أرأيت في باب التسامح يا صاح أفسح من هذا الأفق الرحب؟!!

حقاً لقد كان رسول الهدى أجود من الريح المرسلة...

وصفوة القول يا صديقي أن الإسلام **أول من وضع ضوابط القتال في الحروب من حيث مبادئه ومناهجه وتطبيقه، قررها الإسلام مبدأ وطبقه عملاً**، وعنه اقتبست النظم السياسية والفقه الدولي المعاصر تلك المبادئ... ولكن هل أقامت تلك النظم وزناً له في التطبيق العملي؟!

فلتسل يا صاح مسلمي الشيشان

ولتسل يا صاح مسلمي البلقان

ولتسل يا صاح شعب فلسطين

وسل يا صاح مسلمي الصين

وسل يا صاح مسلمي الأندلس

وسل غيرهم وغيرهم

قال محدثي:

- وحروب الردة ألا تتعارض مع ما تقول وتقوضه من أساسه؟!! **أجبت محدثي**: ولم يثبت في عصر النبوة ولا في عصر الخلافة الرشيدة أن قاتل المسلمون قوماً لم يختاروا لأنفسهم القتال.

- القاعدة في الإسلام أن القتال فيه ليس عقاباً على كفر كافر أو إلحاد ملحد، وقد سبق أو أوضحت لك ذلك مراراً، بل أن فقهاء المسلمين يتحدون أن يأتي بأية من القرآن الكريم أو بحديث صحيح فيهما ما يفيد شن الحرب وإسالة الدماء من أجل إجبار الغير على الدخول في الإسلام عنوة. **قال:**

- وماذا بخصوص قتال المرتدين؟! **قلت:**

- يا صديقي ويا أستاذ الآداب الشرقية ولغاتها إن الكفر نوعان:
- كفــر نشأ عليه صاحبه ودرج عليه، هذا النوع لا يتعرض صاحبه لأي عقوبة أو أذى والدلـــيل على ذلك تصالح نبي الرحمة مع عدة طوائف وملل، بل أقرهم على عقائدهم وشعائرهم ودياناتهم، يُؤدونها كما يحلو لهم، وفق القاعدة الإلهية: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾. ولكنه الخلط والخبط والمغالطة تأتي من الثقافة الصفراء أو ثقافة الجهل إن صح هذا التعبير!

وتعجب محدثي من عبارتي وأسرع يسأل:

- ثقافة الجهل؟!! إنه اصطلاح لغوي عجيب؟!! وسألني عما أعنيه بذلك؟ **أجبته:**
- لـــتأذن لي أن أحدثك بفكر ومجاز اللغات الشرقية التي درستها وتعلمتها، ما أعنيه يا صاح هو: مثلما يحجب ضباب الغيم قرص الشمس المتوهج، ويصير ما حولك مدلهماً معـــتماً أليلاً.... فتختلط الظلام مع الظلمات، والظلمات مع العتمات والعتمات مع الـــدواج، ولا يدري إنسان العين حقيقة أمره فيما يرى وفيما لا يرى وفيما ينبغي أن يـــرى!! وفـــيما ينبغي ألا يرى أهو نهار دهمه دُجا ليلٍ أليل، أم أنه يا ترى أنه ظلام مستديم غشية كسوف أليم!!! في دجى معتم أثيم...!!

كذلك ثقافة الجهل يا صديقي، التي حجبتها حمى التعصب، وأججّتها نيران الحقد وألهبـــتها مشافر الغل فأعتمتها وأظلمتها ظلماً فاحشاً فحدث الخلط والخبط والمغالطة ثم المكابرة.... ثم قلت:

- كما حدثتك: الكفر في الإسلام لكل ذي عينين يا صاح نوعان، أحدهما نشأ صاحبه عليه ودرج، لم تصله البينة ومن ثم فلا حرج، والقاعدة الإسلامية هنا ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ ونوع آخر:

كفـــرٌ بعد إسلام، ويُطلق عليه أهل الذكر **الكفر الطارئ** وهو كما نرى تراجع عن حق وتخاذل عن مبدأ وارتداد عن عقيدة وشريعة...

وفيه شرع الإسلام حدّ الرّدة، وهو القتل بعد الاستبانة إذا أصر المرتد عن كفره ناقضاً عهده مع الله، ومع الإسلام الذي اعتنقه طوعاً.

هـــذه هي حدود الله وتلك هي شريعته وسنته، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، ومن أصدق من الله قيلا يا أستاذ الآداب الشرقية؟

وأجاب أستاذ الآداب الشرقية:

- أدركـــت مـــا تعنيه، ولكن ما تفسيرك للآية الواردة في سورة التوبة والتي يقول فيها الإله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾؟!

وهـــنا طلـــبت منه أن يمهلني بعض الوقت لمزيد من الدراسة والتمحيص والبحث والفهم... وفي اليوم التالي أجبته:

- إنها الآية التي أراد بها "مشركو العرب" تعكير الصفاء السلمي الذي امتاز به هذا الدين الحنيف القيم، فقالوا أنها تعني: قاتلوا القريبين منكم، وهذه هي ثقافة الجهل أو الثقافة الصفراء التي سبق الحديث عنها. **قال بحدة بالغة:**

- وما هي ثقافة العلم إذن؟! **قلت:**

- المقـــصود مـــن الآية "قوم الروم" لا غيرهم، والدليل على ذلك أن المسلمين لما عزموا مناوشـــة الفرس والروم، اختلفوا فيما بينهم. قال فريق منهم نبدأ مع الروم ذلك لأنهم قـــريبون مـــنهم بالعـــراق، وقال فريق آخر نبدأ مع الفرس، وهم بعيدون عنهم كما تعلم...

هنا جاء التوجيه الإلهي من رب السماء: أن يبدأوا بالقريب المجاور ألا وهم الروم، وقد كـــان خطرهم على المسلمين أشد وأنكى وتفوقهم كذلك في العدة والعتاد وحدث ولا حـــرج... ولعلـــك توافقني يا أستاذ الآداب الشرقية على أنه لا ينبغي أن نفهم العبارة في سياقها اللغوي فحسب، ولكن بكل أبعادها التاريخية والزمنية أليس كذلك؟ **قال أخيراً:**

- إنني أوافقك على ذلك الرأي الحصيف. **وأضفت:**

- وأخيراً فعليك أن تعلم كما وأن القرآن **شريعة وأخبار وآداب**، فهو أيضاً **"أثر غيبي"** كان في علم المولى سبحانه وتعالى قبل كل الأزمنة، وأنه دون أدنى ريب يحويها كلها، وكأنـــه يـــوجد معها كلها **فهو هداية إلهيه في أسلوب إنساني يحمل بين طياته دليل إعجازه**، وبهذا يكون كما يقول الرافعي:

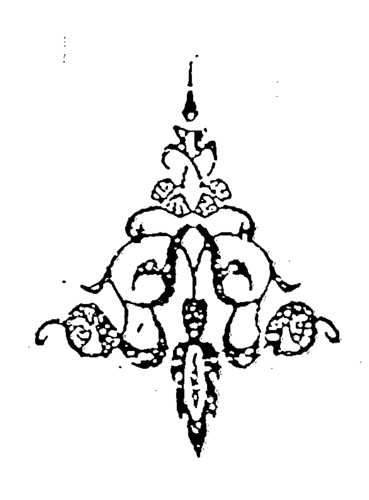
"منفـــرداً في التاريخ بأنه منذ الأزل لا يبرح في كل عصر يظهر من ناحيتين صادقتين: ناحية الماضي وناحية الحاضر"

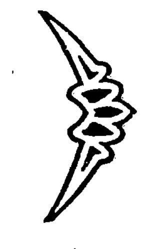
ونضيف من جانبنا: وناحية المستقبل كذلك. كما يقول هذا الأديب الموسوعي:

. "إن القرآن كتاب أُنزل لتكون كل نفس سامية نسخة حيّة من معانيه، وليكون هو الـــنفس المعنوية الكبرى، فهو كتاب ولكنه مع ذلك مجموعة العالم الإنساني... لا جَرَمَ أن القرآن سر السماء فهو نور الله في أفق الدنيا حتى نزول ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول.

وصمت محدثي طويلا ثم قال:

- نـــستكمل حديثـــنا غداً عن الغزوات والحروب خاصة بعد وفاة الرسول، أعني حوار حول الجهاد.





حوار حول الجهاد



بعد وفاة الرسول ﷺ

وفي الغد ابتدرني قائلاً:

- وماذا عن حروبكم بعد وفاة رسولكم؟!

قلت:

- بعد وفاة نبي الهدى فتح الإسلام بنفسه أضعاف ما فتحه المسلمون

تساءل مسرعاً:

- كيف؟!! **قلت:**
- دعوة حق **قال:**
- أريد البرهان **قلت:**
- سل **أقباط مصر** وكانوا أشد الناس استمساكاً بعقيدتهم، وسل **المغول** وقد كانوا أشرش خلق الله اجتياحاً للبلاد من مشرقها إلى مغربها، يذيقون أهلها صنوف الذل والدمار والهلاك، وكما تعلم يا أستاذ التاريخ أن المعتاد أن المهزوم يقلد عادة المنتصر وأن المحكوم يتبع دين حاكمه فما بالك أن يعتنق المنتصر دين المغلوب ويتحول طواعيةً إلى فاتح وداعية... إنه **الإسلام الفاتح** يا أستاذ اللغات الشرقية...

وكما قلت لك يا صديقي أن المسلمين لم يحاربوا شعباً قط ليدخلوه في الإسلام، وإنما قاموا بفتوح تطبيقاً لقول الله عز وجل: ﴿ **إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣** ﴾.

تأمل الآيات، تجدها تتحدث أولاً عن النصر ثم الفتح فيما بعد، النصر على القوى التي تحول دون وصول الدين الحق (ألا وهو الإسلام) إلى الناس كافة.

ثم:

- يفتح الله جل وعلا بعد ذلك القلوب لتلقي نعمة الإسلام وتنهل من خيراته وفضائله.

ويمكنك القول يا أستاذ اللغات الشرقية أن العرب هم الشعب الوحيد بين كافة الشعوب قاطبة الذي جاد بروحه ودمه وفتح البلاد، ثم لم يخرج آخر الأمر إلا بثواب الله

الذي هو أبرك وأبقى وأجدى، **ركضاً إلى الله بغير زاد: إلا التقى وعمل المعاد والصبر في الله على الجهاد: وكل زاد عرضة النفاذ غير التقى والخير والرشاد.**

فالعـــرب لم يحاربـــوا بالمعنى الصحيح أو بالمفهوم الحديث للحروب، أعني مفهوم "**رأيتها ودمرها**"، ولكنهم قاموا بالفتوح تطبيقاً للأمر الإلهي في سورة البقرة.

﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

فالإسلام قد فتح نفسه بنفسه أضعاف ما فتحه المسلمون في الشرق الأقصى ومعظم بـــلاد أفريقيا يا صديقي المستشرق،والأوروبيون الذين ينتقدون آيات القتال، ويرددون أن الإســـلام قـــد قام على السيف فليتذكروا تاريخهم وناهيك عنه من تاريخ يقول الباحث الإسلامي **جمال البنا:- "إن الحروب الدينية شغلت أوروبا قرابة ثمانية قرون وأدت إلى تخريبها... ثم امتدت إلى الشرق في الحروب الصليبية لقرنين ولا تزال آثار العداوات ما بـــين المـــذاهب المخـــتلفة التي كانت سبب الحروب القديمة محتدمة في الصراع ما بين البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا وغيرها".**

كما يستطرد:

الحق أن أوروبا هي آخر من يمكن أن يتحدث عن قتال فتاريخها مخضب بالدم، ثم أنهـــا عـــندما تخلصت من الحروب الدينية داخلها ومن الحروب الصليبية أيضاً فإنها بـــدأت جولة الاستعمار وحرب كل الشعوب الشرقية واحتلال أرضها ونهب ثرواتها وخيراتها بدعوى تحضيرها ونقلها من وثنية الإسلام إلى رحمة المسيحية!!!

وأضفت القول:

- ولتسمح لي أن أدعوك لتحقق وتتأمل ما نادى به منادي الإسلام:

"**من دخل الحرم فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن، ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن**".

ولعلك قد لاحظت أن المنادي لم يقل: "**من دخل الإسلام**"

ودعني أتساءل: هل رأيت في باب التسامح والعفو والرحمة أفسح من ذلك الأفق؟! سيماً حين انطلقت كلمات الرسول النورانية لحزب الشيطان: **"اذهبوا فأنتم الطلقاء"!!!**

قال محدثي:

- هل تأذن لي أن نعود إلى الفتوحات التي وقعت إبان زمن الخلفاء الراشدين، وعلى وجه الخصوص زمن الخليفة عمر بن الخطاب. ثم قـــال: فإنني أتصوره في دراستي له أكبر فاتح في صدر الإسلام بل وأكبر مؤسس لدولة الإسلام. **قلت لمحدثي:**

- لنبدأ... ولنبدأ بفتح مصر **قال محدثي:**

- لا بأس... **قلت:**

- لنتفق بدءاً ذي بدء أن الخليفة عمر ما كان ليفتحها لولا أن علم أن قائد الروم المسمى "أريطـــون" قد مضى لمصر ليحشد فيها جنوده وعدته وعتاده، كي يتأهب فيما بعد للكـــر على الشام، ولتأذن لي أن أعرض عليك ما ذكره المؤرخ الإسلامي الموسوعي الدكتور/ أحمد شلبي، وهي مقدمة لا بد منها كي نتبين معالم الطريق بوضوح.

يقول هذا الباحث:

"إن انـــتفاض الجزيرة العربية جدد الأمل عند الفرس والروم **بأن العرب سيقضون علـــى الإســـلام**، وقدمت الفرس والروم للعرب الثائرين على الحكم الإسلامي كثيراً من المـــساعدات وأوت الفارين منهم، ولذلك لم يكد المسلمون يعيدون الجزيرة إلى وحدتها حـــتى كان الأوان قد آن للزحف نحو الشمال لمواجهة العدوين الكبيرين اللذين يتربصان للإسلام ويعملان على القضاء عليه".

"لقد كانت دولة الروم ترسل البعوث تلو البعوث إلى تخوم الجزيرة، **وتهيج القبائل لحـــرب المسلمين**، ولذا فقد كان المسلمون يعيشون في فزع وهلع دائمين من خطر هذه الدولـــة وأتباعها... وكذلك فارس فقد بلغ بطغيانها أن عائلها غضب من دعوته للإسلام فأوفد إلى الجزيرة رسولاً من الجند كي يأتيه بالنبي العربي حياً أو ميتاً!! ولكن السماء كانت لهم بالمرصاد".

ولعلك تعلم يا أستاذ التاريخ ما جرى لهذا العائل المتجبر المتكبر لشعبه، وما النصر إلا من عند الله، ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ ﴾.

وقد حدث أن مات أبو بكر والمعارك دائرة بين المسلمين من جهة والفرس والروم من جهة أخرى، ثم ظهرت ثمرة هذا العمل في عهد الخليفة **عمر بن الخطاب** – رضى الله عنه.

قال محدثي وقد غشيته نبرة تفاؤل:

- إنني معك تماماً، فلقد تمثلت في الخليفة عمر بن الخطاب كل المعاني الإسلامية الرائعة، هـذه حقـيقة لا جدال فيها، كما وأن الباحث الموضوعي المدقق لا يكاد يجد موقفاً عظيماً في صدر الإسلام إلا واسم "عمر" بارز فيه

قلت بدوري:– هذه خير شهادة. ثم استطردت

- دعـنا الآن نلقـي نظـرة على هاتين الدولتين الكبيرتين لأسباب لا تغفل عن أستاذ الآداب؛ لقد كانت الإمبراطورية الرومانية تمتد من الشام فمصر وشمال أفريقيا إلى شبه جزيـرة أيـبيريا، أباطرتها غلاظ شداد يريقون دماء الدول الخاضعة لهم ويقسون في معاملـتهم.... ولـذلك فقد كانت النيران تتأجج في نفوس هذه الشعوب ضد ذاك الاستبداد وهذا الطغيان بين الحين والحين.

أما في **بلاد فارس** فقد كان المبدأ الرائج عندهم هو **مبدأ الحق الإلهي المقدس**، وأن الملوك هم ظل الله الظليل على الأرض، وأن الهوة بين ملوكهم وشعوبهم بمختلف درجاتهم ومستوياتهم هوة عميقة سحيقة، هيهات أن يتخطى حدودها أحدهم...

ولـك أن تتصور يا أستاذ الآداب الشرقية ولغاتها كيف سيكون الحال حين تسمح هذه الشعوب المغلوبة على أمرها عن دين قد سوّى مساواة تامة **بين الملك والسوقة**، وعن حكام فقراء يرقعون ثيابهم ويخصفون نعالهم ويركبون الدواب كغيرهم من البشر!!!

واسمـح لي أن أذكرك باللحظة التاريخية الفارقة التي لم يعرف فيها أهل القدس **أمير المؤمنين** من **تابعه**، ولا شك أنك تعرف السبب يا أستاذ تاريخ الآداب الشرقية.

دعني أنقل إليك ما كتبه المؤرخ كيرك Kirk في كتابه: A short history of the middle east يقول كيرك: "لقد كانت غالبية أهل المدن والريف في دول الشرق الأوسط الخاضعة للروم يعيشون في ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين، ولذا فلم يدينوا بشيء من الولاء لهذا الحكم... ومن جهة أخرى نجد أن الكنيسة المسيحية باصطباغها بالصبغة الرسمية قد دخلت في دور الجمود المسيطر على رجال الحكم، وبهذا فلم يبق في الكنيسة شئ من الإخاء الذي امتاز به صدر المسيحية، ولهذا فقد حدث انشقاق في الكنيسة كان عامل الوطنية من أسبابه..."

ويستطرد كيرك: "... كما أنه اتخذ شكلاً دينياً حول تفسير طبيعة المسيح... و لم تثمر محاولات التقريب بين الطوائف المسيحية في ذلك الوقت لأن الكنائس المحلية بدول الشرق الأوسط كانت تبغض الأباطرة لاسترضاء شعوب الشرق الأوسط بعد أن حلت محلها اضطهادات شنيعة وحشية، ولذا فقد اتسعت الهوة بين الفريقين إلى الأبد...".

والثابت يا صاح أن الاضطهاد الديني في بلاد الفرس قد بلغ حداً فاق كل تصور وتعدى كل خيال.

وتساءل محدثي مستوضحاً مستفسراً:

- ومن ثمّ؟!!!
- من ثمّ فقد كان قدر الزّحف الإسلامي **الجهاد** من أجل تحرير الشعوب العربية التي كانت لسوء طالعها وقدرها ترزح تحت نير الاحتلال الروماني... والفارسي.. ويمكنك القول بكل صدق يا أستاذ الآداب الشرقية أن الفتوح الإسلامية هي **ظاهرة تاريخية وليست أصلاً عقيدياً**، كما وأن الجهاد في هذا الدين إنما كان وسيظل من أجل تحرير الإنسان لا من أجل منفعة ولا شهوة ولا تسلط ولا غلبة وعلى هذا الأساس **فالإسلام لا يتخذ القتال غاية وإنما هو وسيلة اضطرارية يلجأ إليها عندما لا يجد سبيلاً يحفظ به كيانه إلا هذا السبيل**، كما وأن غايته محددة **فهو في سبيل الله** وليس في سبيل أحد، ومن أحكامه ألا تقاتل من يسالمك أو يوادعك، وإنما يتوجب قتال من يقاتلك أو من يتهيأ لقتالك وهو في نهاية الأمر دفاع مشروع.

وسألني مستفسراً .

- والدليل على ذلك؟! **أجبت:**

- ليس أدل على ذلك من أن مدن العراق حين وصل خالد بن الوليد إليها أخذت مدنه تـصالحه وتدفع له الجزية وآثرت أن تكون معه ضد الفرس سعياً للخلاص من قسوة المحتل المستغل المستبد... ولعلك تعلم أن جيش الفرس كان يربو على **مائة وعشرون ألف محارب** في حين كان عدد المسلمين لم يزد عن **عشرة آلاف**

ثم أضفت:

- لقد انهزم الفرس في الميدان العسكري والثقافي أيضاً ولم يكن ذلك نهاية المطاف فما برحوا يحاربون الإسلام فكرياً لدرجة أن التعاليم الفارسية القديمة ما برحت تظهر بين الحـين والحـين في حـركات **الزنادقة والزنج والقرامطة** وغيرهم... غيرهم حتى هذه الآونة..!!

والآن أنقل إليك ما أكره الدكتور علي جمعة في كتابه "الجهاد في الإسلام":

"... إن المجاهـد في سـبيل الله إنما هو ذلك الفارس النبيل الأخلاق المتدرب على أخـلاق الفروسية العالية الراقية، حتى يستطيع أن يمتثل إلى الأوامر والنواهي الربانية التي تأمـره بـضبط النفس قبل الحركة وأثناءها وبعدها، فقبلها ويجب أن يحرر نفسه من كل الأطمـاع، وألا يخرج مقاتلاً من أجل أي مصلحة شخصية، بل ينبغي أن يتقيد بالشروط التي أحل الله فيها الجهاد، كما وأن يستعد لإنهاء الحرب فوراً إذا ما فقدت الحرب شرطاً مـن شروط حلها، أو سبباً من أسباب استمرارها، وسواء كان ذلك الفارسي منتصراً أم أصابه الأذى من عدّوه، فإن الله يأمره بضبط النفس، وعدم تركها للانتقام، والتأكيد على الالتزام بالمعاني العليا".

وكـذلك الحال بعد القتال، فإنه يجب عليه أن يجاهد نفسه الجهاد الأكبر حتى لا يتحول الفارس المجاهد إلى شخص مؤذ لمجتمعه أو لجماعة أو للآخرين".

ويستطرد هذا العالم الجليل:

"وبالـرغم من أن لفظة الجهاد إذا أطلقت انصرف الذهن إلى معنى القتال في سبيل الله، إلا أن الرسـول صـلوات الله وسلامه عليه قد أسماه **بالجهاد الأصغر** وسمى الجهاد المـستمر بعد القتال **بالجهاد الأكبر، لأن القتال قد يستمر ساعات أو أيام... وما بعد القتال فإنه يستغرق عمر الإنسان كله"**. ثم أضفت القول:

ولتتمعن يا صاح قول الرسول حين جاءه من يقول:

فسأله المصطفى:

- إنني أريد الجهاد.

قال الرجل:

- أحيٌّ والداك.

قال المصطفى:

- نعم.

- ففيهما.

قال محدثي: لقد استوعبت المعنى...

- نعود لحديثنا عن الحروب بين الروم والمسلمين.

أجبته:

- لـــنعد.. قـــد سبق أن أوضحت لك وبيّنت أن مناوشات الروم قد سبقت مناوشات الفـــرس كما وأن الشام وفلسطين ومصر، وهي الدول المحتلة قِبَل الروم لم يكن أهلها علـــى وفـــاق مع المستعمرين القساة... ولقد دارت المعارك بين الجانبين، وأمطرت الحصون المنيعة الرومانية جيوش المسلمين وابلاً هائلاً لا ينقطع من المقذوفات المهلكة.

ودارت معارك خالدة:

- إجنادين.
- دمشق.
- اليرموك.
- بيت المقدس.

وكـــان النصر حليف جيوش الإسلام الفاتح... ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

وأضفت القول:

- ولعلك تعلم أنه حين طلب المسيحيون الصلح لتسليم مدينة "**بيت المقدس**" اشترطوا أن يحـــضر الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه ليتعهد لسكانها بالحرية الدينية، ووافق خليفة المسلمين وحضر بنفسه وكتب كتاب "**الأمان**" الذي أطلق عليه "**العهدة العمرية**".

أرأيت يا صاح في باب التسامح والسلام أفسح من هذا الباب؟!!

- وفتح مصر؟!! **أجبت.**

- لقد كان عملاً طبيعياً... إن الثابت تاريخياً أن أهل مصر لهم دور هام في مساعدة المسلمين ضد الروم... ولهذا تساقطت المدن تلو المدن بسرعة عجيبة: الفرما ثم بلبيس ثم الإسكندرية وغيرهما وغيرهما... **ثم قلت:**

- ولتأذن لي يا أستاذ الآداب الشرقية أن أذكرك ببعض المعاني التي ذكرتها لك في حوارنا السابق، بأن المجاهد إنما هو ذلك الفارس النبيل الأخلاق المدرب على أخلاق الفروسية العالية الراقية، وأن ما حدث في بلبيس **لأرمانوسة** ابنة المقوقس عظيم القبط في مصر هو نفس ما حدث **لسيتا** ابنة الملك زاهر ملك السند الذي أحبها القائد الفاتح **محمد بن القاسم** حباً جماً، إلا أنه ما تعلق منها بريبة ولا هم معها بما يهم به المحبون ولكنه صان كرامتها وعفتها كأكرم ما تصان به بنات الملوك فأرسلها معززة مكرمة إلى بلاط الأمويين بدمشق لتلقي الرعاية والأمان اللازمة هناك.

- وقصة **أرمانوسة** هذه كتب عنها المؤرخون شرقاً وغرباً، لأنها تطبيق عملي للأوامر والنواهي الإسلامية ونموذجاً فريداً لا تحاد الجهاد الأصغر بالجهاد الأكبر.

وتساءل المستشرق.

- وكيف ذلك ؟!

قلت: يحكي لنا الرافعي ما حدث فيقول. "بروح الأدب وقد اختلط بعبق التاريخ ؛ "ولما نزل عمرو بجيشه على بلبيس جزعت مارية وصيفة **أرمانوسة** جزعاً شديداً، إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العرب قوم جياع ينفضهم الجدب على البلاد نفض الرمال على الأعين في الريح العاصف، وأنهم جراد إنساني لا يغزو إلا لبطنه، وأنهم غلاظ الأكباد كالإبل التي يمتطونها... وأن النساء عندهم كالدواب يُرتَبَطن على خَسْف (الذل والهوان)، وأنهم لا عهد لهم ولا وفاء، ثقلت مطامعهم وخفت أماناتهم، وأن قائدهم **عمرو بن العاص** كان جزاراً في الجاهلية، فما تدعه روح الجزار ولا طبيعته، وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناس وشُذَّاذهم، لا أربعة آلاف مقاتل من جيش له نظام الجيش! وهكذا جعلت تندب نفسها مترنمة:

جـــاءك أربعة آلاف جزار أيتها الشاة المسكينة! ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قـــبل أن تذبحي! جاءك أربعة آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة! ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت!

قوّني يا إلهي لأغمد في صدري سكيناً يرد عني الجزارية!

يـــا إلهي قوّ هذه العذراء لتتزوج الموت قبل أن يتزوجها العربي! ثم مضت تتلو على أرمانوسة شعرها هذا فابتدرتها قائلة:

- أنت واهمة يا مارية، أنسيت أن أبي قد أهدى إلى نبيهم **مارية القبطية**، فكانت عنده في مملكـــة بعضها السماء وبعضها القلب؟! ولقد أخبرني أبي أنه بعث بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبي... ولقد أنفذت إليه دسيساً (جاسوساً) كي يعلمه أن هؤلاء **المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل، وأن نبـــيهم أطهـــر مـــن السحابة في سمائها وأنهم جميعاً ينبعثون من حدود دينهم وفـــضائله لا من حدود أنفسهم وشهواتها، وقال أبي أنهم لا يغيرون على الأمم ولا يحاربـــونها حـــرب المُلك وإنما تلك طبيعة الحركة للشريعة الجديدة تتقدم في الدنيا حاملـــة السلاح والأخلاق قوية في ظاهرها وباطنها، فمن وراء أسلحتهم أخلاقهم وبـــذلك تكون أسلحتهم نفسها ذات أخلاق... هؤلاء المسلحون ليسوا كهؤلاء العلوج من الروم... إنهم الإنسانيون الرحماء المتعففون.**

ثم قلت لأستاذ الآداب الشرقية:

- وكمـــا ترى يا صاح فهي ليست قصة من نبع الخيال والوهم ولكنها من واقع الحال كما يرويها التاريخ وهو شاهد حق وصدق ولقد عادت أرمانوسة لأبيها كما عادت ســـيئاً (فـــيما بعـــد) مصانة مكرّمة إلى بلاط الأمويين لتلقي العناية الواجبة والرعاية الإســـلامية اللازمة... إنها أخلاق فرسان نبلاء أيّها الصديق، ركضا إلى الله بغير زاد غير التقى والبر والرشاد.

قال محدثي:

- ولكن ظلت العاصمة **الإسكندرية** الحصن الحصين للروم.. أليس كذلك؟!

- أجـــل... يأتيها المدد عن طريق البحر، حتى فر جنود الروم بسفنهم وأسر من لم يفر، وتقدم المقوقس ليجري الصلح مع المسلمين..... وكان ذلك وفق ثلاثة شروط:
  - الجزية.
  - حرية العبادة.
  - أن ترحل حامية الروم.

ويبقـــى نفــر مـــنهم "رهينة" حتى لا يهاجموا مصر مرة أخرى.. وقد كان ذلك، وصدقت كل العهود.

ثم قلت:

والآن وب**ثقافة الحق** أيها المستشرق ألا ترى معي أن الإسلام قد جاء مهيباً بالشرق للنهوض من كبوته بعد ألف عام وقد اجتاحته سيطرة واستعباد الغريب المريب، فاسترجع على أيدي العرب ماضيه المشرق المهيب!

وترك المسلمون الأرض للمصريين والسوريين والعراقيين على أن يدفعوا ضريبة خراجها، وهـــو كمـــا تعلم أقل بكثير مما كان يأخذه القياصرة والأكاسرة والذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكاً للأرض ورقيقها... وأخيراً فلعلك تعلم ما قام به المسلمون من إصلاحات وتنظـــيمات تتصل بالري والهندسة والطرق والجسور كما تتصل بالشرطة والقضاء وغير ذلـــك ولذا فقد أقبل أهل تلك البلاد على الإسلام يعتنقونه ويدينون به وينهلون من نبعه فأخذ نوره ينتشر رويداً رويداً... حتى ملأ الأفاق إنه الإسلام الفاتح يا صديقي.

وهنا تساءل محدثي:

- ثم مـــاذا بعد الخليفة عمر بن الخطاب؟!... يبدو أن الأمور قد ساءت تماماً من بعده ... وأجبته:
- الحقـــيقة أن عـــين الفـــاروق **عمر بن الخطاب** كانت في كل مكان ترصد وترقب وتحاسب، ولقد كان يهتم اهتماماً عظيماً باختيار ولاته ولا يتهاون في ذلك مهما كان الأمر حتى جاء عهد الخليفة عثمان بن عفان الذي تصدى للانتفاضات التي ثارت في خراســـان بـــل وفي الإســـكندرية ذاتهـــا بعد أن عاد الرومان لمهاجمتها!! إلا أن المد

الإســـلامي كـــان قد تخطى بحر قزوين ونهر جيحون وبلاد ما وراء النهر وقبرص، لا تتعجب فلقد استولى الإسلام على العقول والقلوب والضمائر بقوة سلطانه.

- دين عقلاني يعانق العلم الديني وغير الديني.
- ديـــن تحكـــم فـــيه الـــروابط في الأسرة، سوى بين الرجل والمرأة في المسئولية الاجتماعية والسياسية.
- دين الوفاء بالعهد والعدل والمساواة والتسامح.
- دين أول من دعا للسلام في الأرض بقوة منذ أربعة عشر قرناً أو تزيد.

يقول رب العزة في محكم تتريله: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ إنه الإسلام الفاتح يا صاح.

وها أنت ترى أن الجهاد الإسلامي على امتداد العصور كان فتحاً إنسانياً وشعبياً لم يحدث مثله من قبل أو بعد، كما وأنه تجربة فريدة ثرية في تاريخ البشرية جمعاء بل ودليل لا يـــدحض علـــى قـــوة عقيدته ومثله العليا، فبأسلحة قليلة العدة للغاية ودون تدريب عسكري مسبق تكتسح جنود المسلمين الجحافل المحترفة المدربة، تأمل معي رأي الباحث الإسلامي: جمال البنا، إذ يقول:

"وفي أي تـــاريخ نجـــد مثيلاً لهؤلاء الجنود الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ولا يعـــادل شجاعة نفوسهم إلا عفة سيوفهم فلا يمسون مدنياً أو امرأة ولا يغتصبون المؤن، ولكـــن يـــشترونها ويحملـــون الكتاب والميزان ويقيمون الصلاة، أين من هؤلاء الجيوش الـــرومانية التي كان يسير في أعقابها البغايا وتجار الرقيق!! بل تحارب بفكرة استباحة المدن وانتهاك الأعراض والسيطرة والحكم"

أين؟!!

وإنمـــا ركـــضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى والبر والرشاد ركضا إلى الحق.. إلى الخير الأسمى.

ثم قلت لمحدثي أخيراً:

وهكـــذا تـــرى بجلاء أن الفتح الإسلامي كان عدالة ونوراً وعهداً جديداً لكافة الشعوب والأمم المستعبدة، وكان من الممكن أن يمتد هذا النور وهذا العدل لينال الشعوب الأوروبـــية كـــي يبدد ظلمات الجهالة الأوروبية كما بددها في بلاد الأندلس لو لم يخسر الفتح الإسلامي عند **"بوابته"**

قـــال محدثي:

- حقاً فلقد كانت معركة فارقة... واستكملت حديثي:
- وهكـــذا تـــرى يا صديقي أنه من الخطأ الفادح الظن بأن الغرض من تلك الفتوحات كان نشر الإسلام بالسيف كما يدعي المستشرق **ليفونيان** إذ يقول:

"إن تـــاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح!!! وكما يدعي غيره بأن الإسلام قد انتشر بالسيف إلى الغاية فأي غاية هذه التي يقصدها ويعنيها.. أي غاية سوى ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى والبر والرشاد.

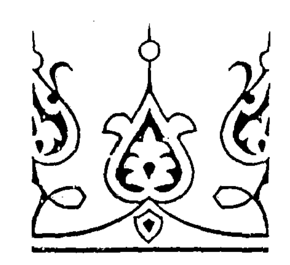
- **ولتأذن لي أن نقرأ معاً في التاريخ: "... وفي السنة الأخيرة من حكم فوكاس ٦١٠ م أوقـــع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية، فأرسل الإمبراطور قائده أبنوسوس ليقضي علـــى ثورتهم، فذهب وأنفذ عمله بقسوة، وقتل الناس جميعاً قتلاً بالسيف، وشنقاً وإغراقاً وتعذيباً ورمياً للوحوش الكاسرة**، وقد حدث ذلك يبن اليهود والنصارى مرة بعد مرة.

وفي نفـــس الوقت أدعوك لنستمع معاً للمفكر الإسلامي الدكتور حسن مؤنس إذ يقـــول: "... الإســـلام نعمـــة الله على عباده، والنعم لا تفرّق على الناس وإنما ينالها من يستحقها منهم، ومن هنا فإن الدعوة إلى الإسلام لا تكون إلا بالحكمة، أي بأفضل الطرق وأحكمها لإيصالها إلى القلوب، ثم الموعظة الحسنة، والجدل الرقيق، فإذا اقتنع الإنسان بهذا الطـــريق كـــان بهـــا، وشملته نعمة الإسلام، لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بمن كتبت عليه الـــضلالة، فهـــو لا يهتدي إلا إذا شاء الله، ويعلم المهتدين الذين تفتحت قلوبهم... فهم يدخلون فيه طواعية دون إكراه".

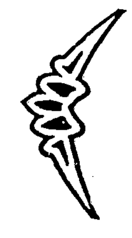
ثم أضفت أخيراً: إذ لو كان هكذا – أي أنه قد انتشر بالسيف لما أبقى الكنائس، وعصم الرهبان والأحبار من القتل، بل ولما جاز أن يأخذ المسلمون الجزية ويتركون الناس

على دينهم وملتهم والجزية كما تعلم حق الانتفاع بالمرافق العامة وكانت تقدر بدينار، أما الأكثر من ذلك فموكول إلى اجتهاد الوالي.

حقـــاً يـــا أســـتاذ اللغات الشرقية وآدابها.. لقد تغيرت الدنيا وتبدلت بعد البعثة المحمدية، بعثة **محمد صلوات الله وسلامه عليه**، الذي كان نفحة سماوية، أمدها الله بكريم الخــلال وحمــيد الخــصال، خُلقه القرآن، تراه يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، لا يحتقر مسكيناً لفقره ولا يهاب مَلكا لملكه يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستوياً... إنه في عبارة موجزة: **"لعلى خلق عظيم"**.



حوار حول فتوحات المسلمين



بعد عهد الخلفاء الراشدين

قال محدثي أستاذ الآداب الشرقية:

- يا صاح كأني بك تريد القول أن الفاتحين المسلمين لم يكونوا بشراً كسائر خلق الله، في بقاع هذه الأرض وإنما كانوا كالملائكة الأبرار الأطهار، وهذا ضرب من الخيال، فمماّ لا شك فيه أن الحرب سجال وقتال وطبيعة من طبائع البشر منذ قابيل وهابيل، فما هي الحقيقة؟ لقد تعاهدنا على ذلك منذ البداية ثم تساءل:

ألم تكن لهم زلات وهنات؟! ألم تكن لهم مثالب إبان تلك المعارك والحروب والكروب؟! أجبت قائلاً:

- لقد كانوا كغيرهم من البشر في تلك "**المشقة**" إلا في روحانياتهم يا صديقي، فقد كانوا أقرب ما يكونوا إلى الملائكة، ذلك لأنهم كانوا على يقين بالقاعدة الإلهية "وما النصر إلا من عند الله... ولقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة.

ولعلك تعجب إذ قلت لك أن الأفذاذ الصناديد كخالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب وغيرهما وغيرهما، كانوا يرددون بين الحين والحين:

كنا إذا حمى الوطيس واشتد البأس نلوذ برسول الله ﷺ فما يكون منا أقرب إلى العدو منه:

وأضفت:

- حدث هذا يوم حنين، يوم هزيمة المسلمين شر هزيمة وثبت هو في الميدان وحده حتى ثاب إليه أصحابه وناضل معهم وانتصر نصراً مؤزراً، وكذلك يوم أحد يوم أن عصاه الروماة... وإنها ليست شجاعة عقلية فحسب بل هي شجاعة قائد، شجاعة محارب.
- وقبل كل ذلك: **شجاعة العفو عند المقدرة.**

وأضفت قائلاً:

- ولا تنسى أنهم قوم نشأوا في حجر النبوة وحضانتها وتخرجوا من مدرستها، أعني مدرسة تهذيب الإنسان الإنسان الذي يؤثر المبادئ على المنافع، والسلم على الحرب والصبر عند الكرب.

فأصـــبحوا بذلك كراماً بررة في بلاد العرب والعجم، دانيها وقاصيها، حتى إذا ما استقر الفتح كانوا قدوة في التعامل والتعايش والبناء الحضاري... رجال ليس لهم نظير في الأمم ولا سوالف في التاريخ، يواجهون تلك "**المشقة**" بسيف العقل إن جاز هذا التعبير.

قال محدثي:

- إذن حـــدثني عـــن فـــتوحاتكم في بلاد الشرق، كيف دخلها الإسلام وإنني أعلم أن رسولكم كان يوجّه أنظار صحابته إلى الخارج – خارج الجزيرة كي يكون فتح العالم الإسلامي مهمة جيل جديد يقودونه.

وأضفت بدوري:

- ويكونـــون قدوة له... وهذه مما لا شك فيه **قراءة رسول "موحي إليه"، للمستقبل الموعود المرتقب، كما أنه حكم عن الله ينقله رسوله إلى الدنيا.**

و لم تكد تنقضي عشرات أعوام حتى يشرق جند الله حدود الصين ووسط آسيا ويسلم أهل الهند والسند.

ثم إذا بهم يغربون حتى المحيط الأطلسي في آخر حدود العالم المعروف آنذاك، وليرفعوا أعـــلام الإســـلام والسلام في أيبيريا والمغرب وليجعلوا البحر المتوسط بحيرة إسلامية تنعم بالعطـــاء والـــرخاء والسلام... ثم يتداولوا بسواعدهم مفاتيح القارة الإفريقية عن طريق مصر.

كل ذلك يا صاح بسيف العقل وبشرائع ومبادئ الإسلام قبل أن يكون بالأسلحة الفـــتاكة التي يفني الناس بها أنفسهم ... تلك المبادئ والأهداف التي حرص على إعلانها وتطبـــيقها الخلفاء الراشدين كما حدثتك سالفاً: **ركضاً إلى الله بغير زاد إلاّ التقى والبر والرشاد.**

قال محدثي:

- لنبدأ.

قلت:

- لنـــبدأ إذن... ودعني أصارحك يا صاح، لقد كانت ثمة هنّات وتجاوزات ما أنزل الله بها من سلطان بين الحين والحين، خاصة كلما ابتعد القوم عن العهد النبوي بروحنياته وتطلعاتـــه الـــسامية الحكـــيمة........ ولكن كانت القاعدة الإسلامية "**إذا نزلت بـــساحتهم فـــلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، وادعهم إلى أن يقولوا لا إله إلا الله محمد**

رسـول الله، فإن قالوا نعم، فمرهم بالصلاة، فإن أجابوا فلا تبغ منهم غير ذلك. والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت".

وهكذا كانت الفتوحات الإسلامية.

- فتوحاً دفاعية.
- لا يقاتل المؤمنون فيها إلا من يقاتلهم.
- إحسان معاملة الأشخاص والأشياء والاكتفاء بإعلان الشهادة بالله ورسوله دون التنقيب عن السرائر.
- أحب الأشياء إلى الله أن يأتي المحاربون بأعوانهم مسلمين لا بغنائمهم أو بسبيهم أو غير ذلك.
- ألا يتمنوا لقاء العدو ولا يعجلوا إلى الحرب.
- الانـتهاء عن التنازع والالتجاء للتشاور، ذلك لأن الحروب أو قل "**المشقّة**" لم تكن إلا عملاً جانبياً تدعو إليه **ضرورات السلامة** ثم قلت:

- وليتك تستمع معي لقول ذلك العالم الموضوعي.. **محمد حسين هيكل** إذ يقول:

"... الإسـلام لم يأخذ بالسيف ولن يؤخذ بالسيف، هو لم يأخذ بالسيف شيئاً قط، بل استولى على العقول والقلوب والضمائر بقوة سلطانه، لذلك تعاقبت على أممه دول حكمـتها وقهـرتها وتحكمت فيها، فلم يغير من إسلامها ولا غيّر من إيمانها، وما تـزال أوروبا اليوم تحكم الشعوب الإسلامية وتتحكم فيها، ولن يغير ذلك من إيمانها شيئاً"، ولعلك تعلم أنه مع كل طلعة شمس يعتنق أكثر من ستين شخصاً الإسلام في هذه القارة!!.

ويستطرد هذا الباحث قوله:

فأمـا الذين يأخذون المسلمين اليوم بالسيف فمصيرهم كي تصدق عليهم كلمة الإنجيل: "أن يؤخذوا بالسيف جزاء ووفاقاً.. ومتى حكم السيف فقل على العقل وعلى العلم وعلى الخير وعلى المحبة وعلى الإيمان، بل على الإنسانية نفسها العفاء".

ويستطرد أيضاً:

وحكـــم السيف العالم اليوم هو سبب هذه الأزمة الروحية والنفسية التي يجتازها العـــالم ويئن من هولها، وقد آمنت الدول التي تحكم العالم بالسيف أثناء الحرب الكبرى الماضـــية بهـــذه الحقيقة فأرادت أن تقر حكم الإسلام في العالم، وأقامت عصبة الأمم لتحقـــيق ذلـــك، وعهـــدة هـــذه العـــصبة تتلخص كلها في قول العزيـــز الحكيم (في سورة الحجـــرات) ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ إنه الإسلام يا صاح دين الحق والعدل والسلام و لم يكن مطلقاً كما قال **كارليل**: أنه قد انتشر بالسيف إلى الغاية.

قال محدثي:

- نعود لفتوحاتكم شرقاً. **أجبته بالقول:**
- ليس معنى هذا أنه لم تحدث هنّات ، فمن من البشر بلا خطيئة أو إثم أو ذنب؟! من؟!!

ولقـــد حدث بالفعل على سبيل المثال أن أحد قادة المسلمين في عهد الخليفة المعتصم العباســـي قد أمر بجلد إمام ومؤذن ذلك لأنهما اشتركا في هدم أحد معابد عبدة النار في بلاد الصفد، وأنهما قد استخدما حجارته في بناء مسجد مكانه... وهنات أخرى ما أنزل الله بها من السلطان ثم قلت:

- لـــو تأملت يا صاح خريطة الأرض وتمعّنت فيها فستتعجب لمدى انتشار الإسلام في كافـــة ربوعها... وسيزداد عجبك عندما تتبين أن ثلث هذه المساحة هي المساحة التي قامت المسلمون بفتحها لإعلاء كلمة الله، أما الباقية، فلقد دخلها الإسلام وملأ قلوب أهلها دون حروب أو إكراه أو سياسة مرسومة لذلك، بل وفق القاعدة الإلهية:

قال محدثي:

- نعود لفتوحاتكم شرقاً... قلت:

- ثمة حقيقة يا أستاذ اللغات الشرقية ألا وهي: أن الإسلام قد دخل معظم بلاد الشرق الأقصى والأدنى عن طريق **القوافل التجارية**. **سأل محدثي:**

- كيف؟! **قلت:**

- من المعلوم أن المسلمين كانوا في العصور الوسطى أكبر رجال قوافل. قال:

- تماماً ذلك لأن بلادهم كانت صحارى شاسعة وقد تطلبت تنظيم القوافل وتأمينها، كذلك الحال في البلاد التي كانوا يجلبون منها بضاعتهم، فقد كانت في معظمها صحاري، مثل صحاري وسط آسيا والصحاري المؤدية لبلاد الهند وهضاب إيران وبادية الشام وأيضاً صحراء مصر الشرقية وهكذا....

واستطرد المستشرق يردد:

- وكانت مكة بمثابة أكبر سوق تجارية قائمة على القوافل عرفها التاريخ. تلك حقيقة تاريخية ثابتة.

قلت:

- وأضيف إليك أن **هاشم** جد النبي كان أكبر رجل تجارة ومال عرفه التاريخ أيضاً، ولقد عمل على تنظيم القوافل والتجارة ووضع لها **القواعد السليمة** كما عقد **الاتفاقات** التي عرفت **بالإيلاف**، ولا تعجب إن قلت لك أن تجار المغول والتتار والفرس والترك وغيرهم كانوا لا يولون قيادة هذه القوافل وتنظيمها إلا عربياً... هذه القوافل يا صديقي كانت **مسلكاً هاماً من مسالك الإسلام**، فكلما حطت قافلة في مكان ما، ورفع الآذان وأقيمت الصلاة، وأعلن القوم أنهم بين يدي الله يرجون العفو والمغفرة، في نظام ووقار وخشوع لا قِبل لغيرهم به... كان ذلك كله أجلَ أثراً وأعظم تأثيراً في قلوب وَجِلت تتساءل: **ما الإسلام؟!**

هذا من ناحية القوافل التجارية وكذلك الأمر في سفن العرب التي حملت الإسلام إلى الهند الشرقية وأندونيسيا وجزر الفلبين وشرقي أفريقيا...

وكذلك الحج يا صديقي، فالحاج وهو في طريقه إلى مكة يخترق بلاداً لا يسكنها مسلمون فكان خير داع لدين الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وتقرأ في التاريخ يا أستاذ الآداب الشرقية قصة أحد هؤلاء الدعاة وقد كان من أهل العلم والفقه بالهند، والذي كان يدعي **زاكتين** ولعله تحريف **لزكي الدين**، وقد أنشأ هذا الداعـــية مدرســـة لتعليم الفقه والشريعة الإسلامية لكل من أبناء التجار المسلمين وأهل الـــبلاد... إنه الإسلام الفاتح يا صاح وليس كما قال أحد المستشرقين: لقد كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح.

لقـــد كانت الشريعة الهندوكية تجعل إرث الرجل كله لابنه الأكبر دون سواه فقد كانـــت شـــرعة الإســـلام تقسم الميراث بالعدل والقسطاس بين ورثة المتوفي... الشرعة الهندوكية تحرم المرأة من الميراث وتدع لأسرة المتوفي الحق في طردها من الجماعة، يزين لها الكهنة الطقوس الغريبة لحرق نفسها حّبه مع بدن زوجها الميت، فإن شرعة الإسلام تدعو إلى الـــرفق بالأرامل ورعاية أموالهن وحقوقهن... وهكذا بدأ الناس يدخلون في دين الله أفـــواجاً وليس كما قال المستشرق **نيلسون**: لقد أخضع سيف الإسلام شعوب آسيا بحد السيف.

وكما ترى فبالدعاة وبالحج وبالقوافل التجارية والبحرية انتشر الإسلام في الشرق الأدنى والأقصى ولعلك تعلم أن ٩٠% من سكان أندونيسيا مسلمون.

ولقـــد بلـــغ أوج انتشاره بها القرن السادس عشر حتى دخل الغزاة النهّابون البلاد، أشـــهروا سيوفهم في أوجه المسلمين المسالمين، فوقف هؤلاء يدافعون عن حماهم يرفعون الظلـــم عـــن المظلومين ويصدون الكرب عن المكروبين.. ثم جاء الغزاة الهولنديين، الذين كانـــوا جـــلّ همّهم احتكار نقل التوابل والعطور والأبنوس وسن الفيل وما إلى ذلك من خـــيرات هذه الجزر والتي تزيد على الثلاث آلاف جزيرة..نقلها الهولنديون لبلاد الغرب بمـــبالغ باهظـــة، بعد أن نعمت بسلام الإسلام وفضائله.. خلال القرون السادسة عشر والسابعة عشر والثامنة عشر والتاسعة عشر.

والآن ألم تلحظ يا صاح أن المسلمين هم الشعب الوحيد الذي جاهد بدمه وروحه وفتح البلاد ثم لم يخرج آخر الآمر إلاّ بثواب الله الذي هو أبرك وأبقى وأجدى.

بـــل لقـــد كانوا أقل أموالاً من غيرهـم من أهل البلاد التي فتحوها، إنهم دون أدنى شك يا صاح حالة فريدة في التاريخ من أزله إلى أبده!! وحسبك أن تعلم أن الهولنديين — بعـــد استيلائهم على خبرات هذه البلاد أصبحوا من أضخم بلاد الأرض أرصدة، وتمكنوا كمـــا تدل على ذلك الأبحاث الاقتصادية من المساهمة في معظم رءوس أموال الشركات الأمريكية والأوربية فيما بعد أيضاً وسأل محدثي.

- وماذا عن فتح القارة الهندية وسائر الدول التي حولها؟!

قلت:

- لنـــبدأ أولاً ببلاد البنغال والبهار، وكانتا أفقر نواحي الهند، فكثرة الفيضانات المهلكة، ولكثرة السكان وافتقارها لكل أشكال الحضارة والثقافة بوجه عام.. ولقد كان من الطبيعـــي أن يغير عليهم جيرانهما سلباً ونهباً وإذلالاً، خاصة من البراهمة والهندوس، حتى أصبحوا في عداد المستضفعين المنبوذين.

ثم حـــدث أن أقـــبلت جماهير هاتين الدولتين على الإسلام **طواعية**، فوجدوا فيه الإحـــساس الإنـــساني النبيل والمساواة والسماحة وجليل الصفات، كما أقبلوا على علوم أتـــاهم بها العرب والفرس سواء بسواء وهنا بدأ قدرهم يرتفع رويداً رويداً حتى أصبحت بلادهـــم أعمر بلاد الدنيا وأغناها، وحسبك أن تعرف أن مدينة **دكا** كانت تسمى مدينة الألفي مسجد.

۞ إنها يا صاح دولة **البنجلاديش** كما أطلق عليها فيما بعد. وأضفت:

- وكـــذلك في بـــورما وتايلاند وكبموديا ولاوس وسائر البلاد هناك وفي المرتفعات والأراضـــي الـــضاحلة ومـــناطق الأحراش وعلى ضفاف الأنهار أنشأ تجار المسلمين المساجد ومراكز العمران.

وهناك سأل محدثي:

- ومـــاذا فعل الكهنة البوذيين؟ إنهم كما أعلم أشد الناس دفاعاً عن فكرهم وعقيدتهم، إنهم سادة مجتمعاتهم وشركاء الملوك في خيرات البلاد كما أعلم ماذا كان موقفهم.

قلت:

- أجل استعانوا بالملوك وأصحاب السلطة والجاه لاستئصال شأفة الإسلام بعد أن ظنوا أن الإسلام يهدد مراكزهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ولكن الله غالب على أمره، فقد حدث في **شبه جزيرة ملقا** أن قام أهلها بدور كبير في نشر الإسلام في الهند الصينية!!!

في هذه البلاد يا صديقي تجد الكثير منهم يحملون لقب الحاج كما تجدهم يحرمون أكل الخنزير والكلاب والسلاحف والتماسيح... مساجدهم كثيرة وصغيرة، وفي مدخل كل مسجد خوض ماء للوضوء، يستخدم المسجد كمدرسة لتعليم الصغار وتحفيظهم القرآن الكريم بصورة خاصة.. لا يتركون صوم الشهر الفضيل قط، وقد اصطلح بتسميتهم "**شعوب الخير**" بين مختلف الأمم المجاورة لهم، لما على سيماهم من صلاح وتقوى وإيمان وورع..."

وحسبك يا صديقي أن تقرأ ما سطره **ابن بطوطة** في هذا الشأن، وفتوح البلدان، وتاريخ الأمم والملوك للطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير.. لتعلم حقاً أن من تعاطي مهاجمة الإسلام صناعة وغرّبة الغررو وشمّر في ذلك حمية وعصبية قد جانبه الصواب وأن **الخوف الحقيقي على الإسلام** ذاته، والذي هو في حاجة إلى دولة قوية تحميه وترعاه، والذي قُدّر له أن يكون مادة التحدي في متوالية الصراع في الفكر الغربي المعتنق لنظرية "الحرب من أجل السياسة" وناهيك عن تلك السياسة.

والآن: ألا ترى معي يا صاح أن هذا الخوف وذاك الرعب غير المبرر من الإسلام إنما هو عَرَض مَرضي خبيث من أجل الهيمنة! ولأنه كما سبق أن أخبرتك استطاع أن يقود الفكر الغربي من أساسه ونقل هذا الفكر من **مركزية الإنسان إلى مركزية محبة وعبادة الله في حياة البشر**.

وصمت محدثي و لم ينبس ببنت شفه!! فأضفت أخيراً: بسم الله الرحيم الرحيم يقول المولى في محكم التتريل في سورة آل عمران: ﴿... **لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ ومن أصدق من الله قيلاً !!!


حوار حول انتشار الإسلام في أفريقيا

بعد عدة أيام وعبر شاشات النت جاءني سؤال محدثي:

قبل أن أسألك عن انتشار الإسلام في القارة الأفريقية أود أن أبادرك الحديث، ألا ترى معي يا صديقي أن الانتقام يعتبر فضيلة كبرى عند معشر المسلمين، يشهروها حادة في وجه أعدائهم وخصومهم وربما رفاقهم أيضاً على حد السواء دون تمييز أو فوارق ودون سبب مقبول أو مبرر معقول. كما استطرد:

... أريد إجابة دقيقة موضوعية صادقة كعهدنا...

والحقيقة أن سؤاله كان مباغتاً صادماً... لم أكن أتوقعه. ورددت بدوري:

- وبماذا تفسّر الطعنات الثمانية عشر التي نالتها الفتاة المصرية البريئة في ساحة القضاء، دون ذنب اقترفته سوى أنها ترتدي الحجاب؟!!... تذكر جيداً أن الطعنات كانت ثماني عشر طعنة، وتذكر أن ما حدث كان في ساحة العدالة والقضاء!!!

كما تذكر أن الحارس المكلف من قبل السلطات الألمانية بالأمن والحماية قد أطلق الأعيرة النارية ليصيب زوجها دون المتهم، الذي كان لا يزال قابضاً بهمجية التتار على حنجرة المخضب بالدماء، لتتساقط القطرات واحدة بعد الأخرى فوق أرض ساحة العدالة والقضاء وقدر ران صمت **الفضيلة** التي ذكرتها على وجوه القضاة... ولا مجيب أو مغيث!!!. اللهم صرخات وصيحات وليدها الصغير المكلوم،وما رأيك في مجزرة **هوتيموثي مكفي** في اكلاهوما عام ١٩٩٥ . ما رأيك يا صاح؟!!

*****

وران صمت بيننا ثم تساءلت: أتدري يا أستاذ اللغات والديانات ما هي أحب الديانات إلى الله سبحانه وتعالى... لا شك أنك تعلم علم اليقين أنها **الحنفية السمحاء.**

يقول رب العزة بسورة البقرة: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ أرأيت في باب التسامح أفسح من هذا الأفق، حتى مع الصابئة الوثنيين إذا آمنوا بربهم وبالبعث، وعملوا عملاً صالحاً لهم ولمجتمعاتهم!!!.

ألا ترى معي أنه تسامح يصل بالحياة الإنسانية أقصى ما يريده الله لها من السمو والرفعة والرقي!!!

وأضفت: لقد أمر الله "رسوله وكافة المسلمين" بالتسامح مع أهل الكتاب وأمرهم بأمرين:

- **العفو**: وهو التسامح في عقوبة الذنب.
- **والصفح**: وهو الإعراض عن اللوم والتخلي عنه.

وتأمل الحكمة الإلهية يا صاح بسورة البقرة: ﴿ **فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ** ﴾. وكذلك الآية الكريمة في سورة المائدة: ﴿ **فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ وقوله جلت قدرته بسورة الشورى: ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ** ﴾ وقوله سبحانه وتعالى في سورة النور: ﴿ **وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ** ﴾.

كما يحث سبحانه عز وجل على ذلك مراراً وتكراراً في مختلف الآيات القرآنية كما تعلم، وأضفت: تأمل يا صاح قول نبي الهدى وقد نال الأذى من طغاة قريش: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" وترديده بين قومه: "من سره أن ترفع له الدرجات فليعف عمّن ظلمه، ويعط من حرمه ويصل من قطعه" وتأمل قوله: "ما زاد الله عبداً يعفو إلا عزاً". وقوله: "وأن تعفو عمّاً ظلمك".

أرأيت حقيقة المنهج الرباني وفضائله لكافة المسلمين يا صاح.

أظن من الجليّ لكل ذي عينين أن الفضيلة العظمى عند معشر المسلمين هي العفو النبيل والصفح الجميل حتى يأتي الله بأمره وتأمل يا أستاذ الآداب الشرقية قول شاعرنا:

ملكنا فكان العفو منّا سجيّة ... ولما ملكته سال بالدم أبطُح

وأضفت: ربما كان ذلك في عصر الجاهلية كما يحدثنا في ذلك أبو الحسن الندوي في كتابه "**السيرة النبوية**"، إذ يقول عن تلك الحقبة العجيبة.

"... وبلغت بهم القساوة والحمية المزعومة إلى وأد البنات كما شاعت فيهم الغارة وقطع الطريق على القوافل... كما كانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة، وأغرموا بالحروب حتى صارت مسلاة لهم وملهى، وهانت عليهم إراقة الدماء، فتثيرها حادثة تافهة، وتدوم الحرب أربعين سنة ويقتل فيها ألوف الناس... إلى حين نهض محمد ﷺ ونهض معه العرب كلهم لإيمان جديد... لم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد أو إزالة عبادة من العبادات أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يلقى له المصلحون والمعلمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مصر. ولكن القضية كانت قضية إزالة إنقاص جاهلية، ووثنية تخريبية تراكمت عبر القرون والأجيال ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين وجهود المصلحين والمعلمين وإقامة بناء شامخ شيّد البنيان واسع الأرجاء يسع العالم كله ويؤدي الأمم كلها، قضية إنشاء إنسان جديد يختلف عن الإنسان القديم في كل شئ كأنه ولد من جديد...".

۞ حتى بزغ نور الإسلام . . . . نور السلام.

قال الصديق:

- لنكمل حديثنا عن انتشار الإسلام في القارة الأفريقية.

قلت:

- ما ذكره الباحث **ميك** Meek يوضح ويفسر الكثير من هذا الأمر دون شك ففي كتابه Northern Tribes of Nigeria. يقول:

"جاء الإسلام بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعاً حضارياً متميزاً لا يزال واضحاً حتى اليوم، مؤثراً في نظمهم السياسية والاجتماعية. ذلك أن الإسلام حمل الحضارة إلى القبائل المتوحشية وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوباً، وجعل تجارتها مع العالم الخارجي ميسورة... فقد وسّع من الأفق، ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعي أرقى، كما خلع على أتباعه الكرامة والعزّة واحترام الذات واحترام الآخرين... لقد أدخل الإسلام في القراءة والكتابة وحرّم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر، وغير ذلك من العادات الوحشية، كما أتاح للزنجي السوداني الفرصة لأن يصبح مواطناً حراً في عالم حر".

وجاء سؤال محدثي:

- ولكنني أعلم أن أعرافكم تؤديد الأخذ بالثأر وتقره وهناك نص قرآني صريح يقـــول: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾.فأين الحقيقة إن كنتم تبغون سلاماً وأمناً كما تقول قرآنكم يدعو للقصاص؟!!

قلت:

- ليكن إذن موعدنا غداً لأعلمك بالخبر اليقين... وفي الغد قلت لأستاذ الآداب الشرقية:
- لنتفق أولاً في أن شرائع الله سبحانه وتعالى تضمن ما يجلب الصالح وتدفع الباطل للبشر كافة.
- لا جدال في هذا قط...

قلت:

- آيــة الــنص القرآني الكريم: أن القاتل إذا ما علم أنه سيقتل قصاصاً فإنه غالباً سوف يكف عن القتل، وبالتالي سوف يسلم من القتل... وفي ذلك حياد له، وفي نفس الوقت سوف لا يتعرض المقتول للقتل. فالقصاص إذن **حياة للقائل والمقتول معاً**.

وأضفت:

- ... ثم ألا ترى معي أن القصاص فيه شفاء لغيظ أهل المجني عليه، فمن طبيعة النفس — كما يقول علماء النفس — أن تشتاط في غضبها إذا اعتدى عليها عمداً أو قسواً... ثم من المؤكد أنه إذا لم يحدث قصاص للجاني فسوف تثور ثائرة أهل المجني عليه لا محالة، ولسوف يتربصون للانتقام والثأر... وناهيك فقد تتسع دائرة الانتقام فلا تترك الأخضر أو اليابس إلا وأكلته..

وأضفت:

- ثم وأنه من أدبيات لغتنا العربية يا أستاذ الآداب الشرقية إذا اجتمعت حروف معينة مع بعــضها البعض فإن ذلك يصبح له مدلول معين وبيان محدد، وباجتماع حرفي **القاف والصاد** فذلك يوحي بأبعاد لا يجوز تجاوزها... ومن ثم فكلمة قصاص تعني التنفيذ في

أضـــيق **الحدود**.... ثم أن الشريعة الإسلامية السمحاء تؤكد على إقامة البيّنة كما لم تحددها شريعة سواها، إما باعتراف الجاني وإما بشهود عدل... ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ ومن أصدق من الله قيلا!!!.

۞ إنـــه **سلام الإسلام** يا صاح دستوراً ونبراساً وهادياً سواء للأسرة الدولية أو للأسرة في المجتمع الصغير.

ثم قال الصديق:

- نعـــود لسابق حديثنا... وهو دخول الإسلام في القارة الأفريقية، ولقد سبق أن تحدثنا عـــن دخـــوله مصر بوابة هذه القارة العجيبة، قارة السحر والشعوذة والتمائم والرقي والأوثان وما إلى ذلك...

وتساءل متعجباً:

- كيف استوطن الإسلام في كل هذه البقاع؟!!

أجبته:

- ذلـــك لأن الله قد خصه بالقوة الصالحة لتوثيق الوحدة الأخوية بين سائر البشر كافة، دون النظر للون أو جنس أو عقيدة، وتمعن النص القرآني في سورة الحجرات: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾.

ومن أصدق من الله قيلاً يا صاح؟!

وأضفت القول:

- كما حرص **الدعاة** أن يجتهدوا غاية جهدهم في تبديد كل ما قد يعلق بأذهان الوثنيين مـــن الوهم عن معنى الجهاد في الإسلام وأن المسلم لا يستبيح قتل الوثني بالسيف في كل حـــال، ولا يوجب عداوته لغير سبب ما لم يقابله بالعداء، وهكذا بدأ الوثنيون يؤمنون بالحساب وباليوم الآخر، والإيمان بعالم الغيب في حياة أخرى غير الحياة الدنيا.

ولتقرأ معي ما ذكره الباحث "**همفري فيشر**" في كتابه دراسة للإسلام المعاصر على الساحل الغربي للقارة الأفريقية، يقول هذا الباحث:

"إن رعايـــة شهر الصيام قد تغلغلت في تقاليد هؤلاء القوم حتى أصبح الوثنيون يتجنبون القتال فيما بينهم خلال شهر رمضان، ويعتبرونه شهراً حراماً لا يجوز فيه حمل السلاح ضد الأعداء".

ويقول أيضاً:

"وفي المـــسائل الـــتي تيسر التلاقي عليها بين الوثنيين والدعاة إلى الدين الجديد (الإســـلام) مـــسألة التراتيل الدينية في الأذكار العامة، فإن الأفريقي معروف بمحبته للغناء وارتياحه إلى المحافل التي يترنم فيها بالألحان والأهازيج، فاستعان الدعاة بعادات القـــوم المطبوعة في عباداتهم الموروثة على اجتذابهم إلى محافل الذكر التي يرتلون فيها الأناشـــيد ويذكرون فيها اسم الله وصلوات الحمد والدعاء بدلاً من عبارات السحر والطلاسم التي حفظوها من كهانهم عبدة الأصنام والأرواح والشياطين..."

وهنا سأل محدثي:

- هل معنى هذا أن القارة الأفريقية قد أصبحت في غالبيتها مسلمة خالصة الإسلام؟ وأن الوثنية بأعرافها وتقاليدها ومواريثها قد مضت وولت دون ما رجعة؟!!!.

وأجبته:

- تذكـــر يـــا صاحبي تلك الحقيقة التي أكدها رب السماوات والأرض في محكم آيات التنزيل: ﴿ **وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا** ﴾. تذكرها جيداً... وأضفت:

يقـــول الدكتور حسن إبراهيم في كتابه: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية: "... ويمكن أن يقال بوجه عام أن الزنوج لا يزالون يحتفظون بشطر من عقائد المذهب الحيوي (animism) والـــذي يقـــول بوجود روح أو نفس الحيوان... ويعتقد أصحاب هذا

المذهب بوجود **إله واحد**.. ولذلك فإنهم يجدون أن إله المسلمين ليس غريباً عنهم... كما وأنهم يعتنقون الإسلام جهراً مع احتفاظهم ببعض العقائد القديمة..."

ويقـــول أيـــضاً: أن تأثير الشريعة الإسلامية في الزنوج المسلمين أشد وضوحاً في العقيدة في حين يقل أثرها في الأحوال الشخصية والأسرية".

ولكننا يا صاح نأخذ برأي العلامة أندرسون إذ يقول في كتابه: Unity and variety in Muslim Civilization "... ولقد أخذ أثر الشريعة الإسلامية في عـــصور متأخـــرة يجـــاوز ناحية العقيدة ويتسرب إلى الحياة العامة، ذلك لأن الشريعة الإســـلامية تـــتجه إلى إيجاد **طراز موحد** من الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي كله، **فقانون الزواج قد نجح في تحديد تعدد الزوجات**، كما أن قانون الزواج والميراث قد **غير نظام الأمومة وجعل الأبوة هي الأصل في الحياة القبلية**، كذلك نظام **الوصية** فقد نظم توزيع الثروة... وهكذا".

ولنستمع إلى قول سيرتوماس أرنولد والذي يقرر:

إن الأساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلامية في القارة الأفريقية... والحق أن نجاح الرواد المسلمين نجاحاً دنيوياً سهل إلى حل كبير جـــداً نجاح الإسلام في جهات كثيرة من هذه القارة، كما سهل تأسيس دول إسلامية على أنقاض دول وثنية... وحيثما شق الإسلام طريقه نجد هناك الداعي المسلم حاملاً الدليل لعقائد هذا الدين"

أما الدكتور حسن إبراهيم فيقول:

"... والداعي المسلم يستطيع أن يمد القبائل الزنجية غير المتحضرة بكثير من الحقائق المتعلقة بالله والإنسان تصل إلى القلب... بل يستطيع إلى جانب ذلك أن يمنحهم ترخيصاً بالدخول في **وحدة اجتماعية سياسية**، تُخولهم حق الحماية والمساعدة في البلاد الإسلامية

الـــتي تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى سور الصين شرقاً، وحيثما يستطيع المسلم أن يجد هـــناك داراً إسلامية يجد الأفريقي الذي تحول إلى الإسلام يردد أركان عقيدته واثقاً من المأوى والقوت والنصيحة، وسرعان ما يجد نفسه في بلاده **عضواً في طبقة ذات نفوذ** إن لم يكن في الطبقة السائدة به".

ثم قلت أخيراً:

- هـــذا هو شأن الإسلام الذي كان دينا وحضارة في آن واحد يا صديقي، كما وأنه لم يكـــن قط عبادة فحسب بل كان **نهضة دينية ودنيوية معاً** بكل ما تعنيه الكلمات من معان وفكر، كما لم يكن السيف سبيله في تحقيق أغراضه وأهدافه بين زنوج هذه القارة التي يربو عدد سكانها عن **مائتين وخمسين مليون نسمة**، منهم أكثر من **مائة وعشرين مليوناً** من المسلمين وذلك وفق الإحصائيات التي وردت في كتب التقويم السنوي.
- كما أضفت قائلاً:
- وعـــن طـــريق التجارة والدعاة استقرت جموع العرب على حدود القارة الساحلية في بادئ الأمر، وكما جاء في كتب التاريخ:

"... ثم أوغلـــوا في داخل القارة المتاخمة للساحل، حيث صادف الإسلام نجاحاً كبيراً في قـــبائل الجلاّ الذين استوطنوا بلاد الحبشة، كما انتشر أيضاً بين قبائل الصومال... ثم شق الـــدين بقـــوته الذاتية طريقه إلى أوغندا ثم إلى نياسالاند ثم إلى زنزبار ثم إلى كينيا وأوغندة وتنجانيفا ثم إلى أقصى جنوب القارة الأفريقية... إلى مستعمرة الكاب.

ولعلك تعلم علم اليقين أن الإسلام قد نظم المعاملات بين أفراد الجماعة الإسلامية، كمـــا حـــرص كل الحرص على توثيق الفضائل في المعاملات داخل الأسرة، باعتبارها الركيزة الأساسية ولبنة المجتمع: وذلك كله وفق ما جاء في منهاج القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ثم قلت أخيراً:

- ومـا قـرره مـن مبادئ حقوق الإنسان، إذ وضع **أساس الحرية والإخاء والمساواة والعـدل والتسامح الديني** في أسمى صوره... وخلف كما ترى للإنسانية الحديثة هذا التـراث المجـيد من علم وأدب وفن ونظم وتشريع ذلك لأنه رسالة عامة لجميع البشر وكما أخبرتك فإنه نهضة دينية ودنيوية معاً.

وران صمت مطبق على شاشة النت فاستطردت:

- ويطـيب لي أن أنقل لك رأي المستشرق بوذورث سميث **Bosworth smith** إذ يقول عن أثر الحضارة الإسلامية في هؤلاء الزنوج:

۞ "إن أقـبح الـرذائل، وهي أكل لحوم البشر، وتقديم الإنسان قرباناً ووأد الأطفال أحياء، تلك الرذائل قد اختفت إلى الأبد، والأهالي الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة أو أشباه عراة بدءوا يرتدون الملابس، بل أخذوا يتأنقون في ملابسهم والأهالي الذين لم يغتـسلوا قـط من قبل، بدءوا يغتسلون، بل إنهم يكثرون من الاغتسال لأن الشريعة الإسلامية تأمر بالطهارة".

ويطيب لي أيضاً أن أنقل رأي العقاد في كتابه: **"الإسلام والحضارة الإنسانية"** إذ يقول:

۞ "... لقـد حفظت الحضارة الإسلامية العريقة لكل أمة تحضّرت بها كياناً قوياً لا يسهل هضمه وإدماجه في كيان آخر أجنبي عنه... هذا الكيان القوي هو الذي وقف في وجه الاستعمار حيث كان، واستفاد منه المسلمون وغير المسلمين، لأن الاستعمار خطر على الأمم الشرقية جميعاً من كل نحلة وبغير فارق بين الأديان والأجناس"

ويستطرد هذا المفكر:

❁ "هـــذه المقاومـــة القوية هي التي يسميها المستعمرون جموداً من المسلمين في وجه الـــتقدم والارتقـــاء، وليـــست هي في الواقع جموداً من هذا القبيل ولكنها **محافظة على "الكيان القومي"** يحميه أن يقع فريسة سهلة بين براثن المستعمرين، ويستفيد منه ضحايا الاستعمار في مختلف الأقوام والأديان"· كما يقول:

"والأمـــم الإســـلامية أشد الأمم تعرضاً لعداوة هذا الاستعمار الذي يعادي جميع الأديـــان في الواقـــع، ولكنه يعادي الدين الإسلامي بصفة خاصة، لأنه **نظام اجتماعي وآداب معيـــشة** في وقت واحد، وله مبادئ فكرية تقوم عليها الآداب والعلاقات كما. تقوم عليها عقائد الدين ووجهات النظر إلى أصول الحياة".

وران صمت مطبق على شاشة النت حتى جاء محدثي بالسؤال التالي:

- وماذا عن البربر في شمال هذه القارة؟!

وأدركت إلى ما يغمز ويلمز إليه أستاذ الآداب الشرقية.

وأجبته بالقول:

- لقـــد كانـــت منطقة الشمال الأفريقي تغلي بالقلاقل وتثور الاضطرابات فيها من فترة لأخرى في الوقت الذي كانت الفتوحات الإسلامية في هذه المنطقة تمتد بسرعة عجيبة، إلا أن الإســـلام لم يكن قد تمكن من قلوب المسلمين هناك.... وكان البربر ينقضون علـــيه كلما سنحت لهم فرصة أو أتتهم سانحة... وكان لا بد أن يمتلك دين الإسلام قلـــوب هـــؤلاء البربر، فبث الدعاة والعلماء لقيامهم بمهام الدعوة بينهم، وبالفعل فقد استطاعوا صهرهم روحاً وعقيدة بل وحماية لنشر الدين الجديد.

وجاء السؤال:

- ومتى كان ذلك على وجه التحديد؟!

- كـــان ذلك سنة ٨٦ للهجرة...: ولقد دخل هؤلاء البربر في دين الله أفواجاً، وصارت أغلبيتهم جند الله... كما كان من بينهم قائد عظيم هو **طارق بن زياد** الذي انطلق في بـــلاد الأندلس يعلي كلمة الله رافعاً راية دينه الحنيف، وكأن هؤلاء البربر يرددون ما هتف به المؤمنون الأوائل:

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المــعاد

والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاذ

غير التقى والخير والرشاد

وفي هذا الصدد يحدثنا الدكتور طارق السويدان فيقول في كتابه عن الأندلس:

"... وطلـــع موكب النور، ولا يحتاج النور إلى قوة قاهرة، ولا إلى جيوش جرارة ولا أعتدة موقرة، وإنما يحتاج إلى نوعية فرد يحب الموت لإعلاء كلمة الله بل يرى أن الحياة تـــبدأ عندما يسقط أحدهم شهيداً فيقول: "فزت ورب الكعبة"... وفرد إلى فرد إلى فـــرد يؤســـسون جنداً يمثلون قدرة الله في الأرض. ومن يقف أمام قدرة الله؟! ومن يصده؟!

كما يستطرد:

"... وهكـــذا كـــان المسلمون في فتوحاتهم على جميع الجبهات في مختلف الأمم والنحل فامتازوا بالعقيدة التي تفتدي بالنفس وبالقيم الإنسانية التي يحملها الفاتحون إلى البلاد ويعبرون عنها بسلوكهم على مختلف المسئوليات والأوصاف". وأضفت قائلاً:

- ولا شـــك أنـــك تعلم يا صديقي كيف كان حال هذه البلاد في تلك الحقبة، وكيف كانت تشكو الفساد الاجتماعي وعدم الاستقرار، زيادة على تسلط الكنيسة وسطوها،

وكيف كانت حالة الشعوب الأوروبية التي استخدمت النعرات بين الناس، وإثارة الفتن والفرقة بين مختلف فرق النصارى، كما كانت تؤجج الشعور الديني الكامن في فطرة الإنسان للقيام بحروب: صليبية كانت أم غير صليبية...ما أنزل الله بها من سلطان.

وأضفت:

- ولقد عامل المسلمون أهل الأندلس كما عاملوا كل البلاد المفتوحة بما تتطلبه الحقوق الإنسانية: **حق الحياة وحق العبادة وحق حرية المال والنفس والعرض،** لا تشغلهم الكنوز أو الثروات، الأمر الذي جعل الناس في البلاد المفتوحة يندهشون تماماً بما يرون...!!! وكما قرر التاريخ:- فيدخلون إلى الدين بإيمان صادق ويقين تام حيث: "**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**"... وأينما حل هذا الدين فالمآذن ترجيع آذان المهيمن الديان في كل مكان.. كما استطردت:

- وعن مسلمي الأندلس وفلاحيهم عرفت أوروبا تنظيم طرق الري والصرف مما أحيا الكثير من الأراضي الموات، وتحولت يا صاح شبه جزيرة أيبيريا إلى جنات خضراء ومروج فيحاء...... كما عرف هؤلاء الفاتحون ملكية الأرض والتداول الحيازي وتنظيم العمل والإنتاج فيها، **في إطار يحفظ مصالح الجميع دون تفرقة بل يتخطى مظالم وفظائع النظام الإقطاعي** الذي كان يعتبر الفلاح رقيقاً من أرقاء الأرض.

وفي هذا الصدد يحدثنا **ديورانت** في كتابه قصة الحضارة إذ يقول:

❁ **"... وحرّروا – يقصد العرب – رقيق الأرض من عبودية الإقطاع، وكان العرب في معظم الأحوال يتركون أعمال الزراعة إلى أهل البلاد، غير أنهم كانوا يستعينون بأحدث ما ألف من الكتب في علومها، وبفضل العرب بلغت هذه العلوم في أسبانيا من التقدم أكثر مما بلغته في أوروبا المسيحية، كما كان هناك أسطول تجاري يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى أفريقيا وأسيا..."**

كما يستطرد ديورانت:

"... ومـــن المعلـــوم أن الفن المعماري الأندلسي الذي يمثل قصر الحمراء ومسجد قرطبة وقصور أشبيليه وغيرها.. تثبت ما وصل إليه المسلمون من الرقي في الفن المعماري والذي ترك آثاره في العمارة الأوروبية حتى الآن...".

ومن العجب العجاب بعد ذلك يا صاح أن الجيوش الجرارة التي وفدت من الممالك الأوروبـــية إنجليـــزية وألمانية وفرنسية وأزاحت المسلمين عن الأندلس وأقصتهم عن شبه الجزيـــرة لـــيواجهوا مـــصيراً أسود حالكاً مظلماً وفق ذلك المبدأ الذي اعتنقوه: **الويل للمغلـــوب**... وكـــم فـــتكت بهم محاكم التفتيش وأبادت ما يربو على الثلاثة ملايين شـــخص، ونصّرت من بقى حياً قسراً وقهراً وأطلقت عليهم لفظ الموريسيين، والفرائص تـــرتعد من قصص التعذيب والاضطهاد، وحسبك أن تعلم ما اقترحه القس "بليدا" من ضرورة قطع رؤوس كل العرب بما فيهم المتنصرين بحد السيف، كما أحرق أكثر من ١٥ مليـــون كـــتاب، فيما عدا الكتب الطبية التي كانت تذخر بعلم فياض هيهات أن يؤلف نظير مثلها، ولقد كانت احتفالات الحرب الجماعية تحظى بحضور الملك **فرناندو الخامس** للترويح عنه والتسلية، ويا لها من فضيلة انتقام أيها المستشرق؟!

- قال محدثي: ولكن هذه المحاكم انتهت رسمياً عام ١٨٣٤.

قلت:

- أجـــل، ولكـــن هناك العديد ممن يؤيدها إلى يومنا هذا ؛ إنّها توابع تلك الفضيلة...:- فضيلة الانتقام يا صاح. ؟!! !!.!!

۞ ومن العجب أن هؤلاء الغزاة حين هموا بهدم الجوامع والمساجد وسائر الآثار الإسلامية، لم تطاوعهم المعاول ولا الأحجار على ذلك الأمر الذي استعصى عليهم تماماً!!! وإنك لترى الآن تلك الآثار بإسبانيا رؤية عين.

... ترى تعانق هاتين الحضارتين "الإسلامية والمسيحية" في وئام وسلام حميمين!!!

أليس هذا من العجب العاجب!!! قال محدثي:

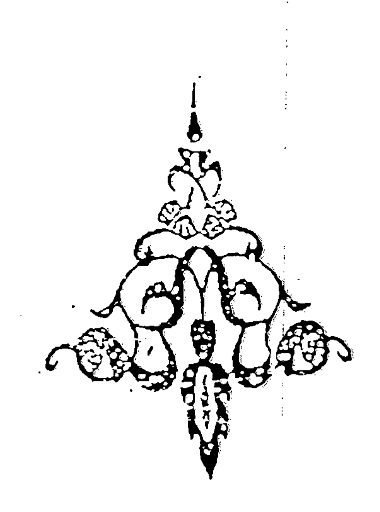
- لقد رأيت ذلك بنفسي، وتعجبت له.

- ورحل المسلمون عن الأندلس كما أطلقتم عليها.

ولكن تذكر يا صاح... تذكر:

هذه آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثار

وصمت محدثي وصمتت شاشة النت..




حوار حول انتشار الإسلام في أوروبا

ومضت عدة أيام وطلب صديقي مواصلة حديثنا، وسألني:

- هل لنا أن نتواصل في حوارنا؟! أجبت:

- أراك تـريد أن تواصل الحوار فيما يخص القارة الأوروبية... أليس كذلك؟!!! أجاب أستاذ اللغات الشرقية:

- هـو ذلـك تماماً... ولكن هل تسمح لي أن أبدي ملاحظة هامة للغاية فيما يخص فتوحاتكم...؟!

- تفضل...

- لقـد لاحظت أنكم تفتحون البلدان لنشر تعاليم دينكم وسنته وشريعته ثم سرعان ما يتولى عنكم أهل هذه البلدان الفتوحات بعد ذلك؟!! إنه حقاً للعجب العجاب؟!!

قلت:

- ذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليدخل فيه أبناء آدم جميعاً، كما وأن الله جل ثناؤه يبعث في أهل هذه البلدان من الغيرة والحمية ما يجعلها قادرة على تحقيق ذلك الأمر... بل وأنه يمكن القول أن الإسلام قد فتح **بنفسه** أضعاف ما فتحه المؤمنون أنفسهم...

... فالمؤمنون لم يلحّوا على الناس في الدخول في الإسلام ولم يستخدموا القوة في ذلك قط وإنما انتشر هذا الدين كما رأيت بفضائله وقوته الذاتية، ألا وهي: "**قوة الحق**"، والتي هي أمضى من كل سلاح، ولتستمع معي إلى قول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾.

بخلاصـة يا صديقي أن داعية الإسلام الأكبر هو الإسلام نفسه... إن الإسلام يعطي الداخل فيه كل شئ ولا ينقصه شيئاً... يقول جوستاف لوبون: "...ولقد ساعد

وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسر السبب في عدم تنصّر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينا سواء كانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة.

ولنستمع معاً لقول السير **توماس أرنولد** إذ يقول في كتابه [الدعوة إلى الإسلام].

"والدليل على سماحة الإسلام بالنسبة لأهل البلاد المفتوحة وأنه لم يجبرهم على الدخول فيه بالسيف أن المسيحيين عاشوا في مجتمعهم آمنين على حياتهم، ناعمين بمثل هذا التسامح الذي **منحهم حرّية التفكير الديني**، وتمتّعوا وخاصة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة.

قال محدثي:

- لنعد إلى السؤال عن كيفية انتشار الإسلام في القارة الأوروبية، وهل كان ذلك كسابق عهده في القارة الأفريقية أو القارة الأسيوية... أم أن الأمر يختلف اختلافاً بيّناً للفجوات الحضارية بين هذه وتلك؟

أجبت:

- لا شك أن الأمر يختلف كثيراً. ولنستمع لرأي الباحث الإسلامي الدكتور عبد الحميد سليمان أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بالدمام إذ يقول:
- "... إن العلاقة بين الإسلام والمسلمين وبين أوروبا علاقة ممتدة ومتداخلة لاعتبارات تاريخية تعود لقرون طويلة من الاحتكاك العسكري والسياسي الحضاري والاقتصادي، قديمة قدم التاريخ وتسبق ظهور الإسلام وتقدم الحضارة العربية الإسلامية، **كما تأخذ دور لها كطرح حضاري وإنساني بالغ التميزّ والقوة والجاذبية...** ولقد شهدت تلك العلاقات على أصعدتها المختلفة مدّاً وجزراً وتبادلاً مشتركاً برزت فيه الحروب

والـــصراعات العـــسكرية كـــوجه قائم لتلك العلاقات، وبرزت فيه **الحضارة العربية الإســـلامية وعطاؤها المتفرد في شتى العلوم واستيعابها لحضارات أوروبا القديمة** مثل الحضارة اليونانية والرومانية واللاتينية إضافة إلى غيرها من الحضارات الأسيوية، وكان هضم الحضارة الإسلامية لذلك كله واستيعابه ثم الإضافة إليه وتطويره ونشره في البلاد الـــتي حل بها المسلمون... كل ذلك يمثّل الوجه المشرق للعلاقات بين الشرق والغرب بشكل عام والإسلام وأوروبا على وجه التفرّد والتخصيص".

ثم أضفت قائلاً:

- لقد بدأت فتوحات المسلمين بأوروبا منذ اصطدامهم مع البيزنطيين في بادئ الأمر، ثم فـــتوحاتهم في شـــبه جزيـــرة أيبيريا وجنوب أوروبا وساحلها المتوسط وصولاً للتقدم وكذلك الجهاد العثماني في شرقي أوروبا والبلقان ...
- ولم يكـــن ذلك في حقيقة الأمر نضالاً عسكرياً على نحو المتعارف عليه هذه الآونة... ولكـــنه كان بمثابة تمهيداً لنقل الإسلام وحضارته إلى شعوب تلك البلاد لإخراجها من ظلمات العصور الوسطى إلى حضارة عصر النهضة حيث التقدم العلمي والفني والأدبي.

وكما يؤكد أحد الباحثين:

"وفي ظل ذلك يكون من الشطط والبعد عن الحقيقة محاولة الربط والجمع على سياق واحد بين الإسلام الفاتح في أوروبا، وبين حروب المغول والفايكنج والهون وغيرهم" . . .

ولا حاجة للقول يا أستاذ اللغات الشرقية وآدابها إلى القول بأن المسلمين قد أغنوا الفكر البشري بالعلوم والمعارف الإسلامية في الأخلاق والفلسفة ومباحث العقل والفنون والآداب والتاريخ والاجتماع، مثلما أغنوه بالعلوم الطبيعية والحياتية في الفيزياء والتشريح والـــصيدلة، وكـــذلك الكيمياء والرياضة والفلك وكل ميدان من ميادين المعرفة الكونية أرضها وسمائها، وما بين الأرض والسماء.

وتأمل قول الحكيم العليم في سورة المجادلة:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ وكذلك قول الهادي الأمين: "**العلماء ورثة الأنبياء**" وقوله كما رواه الإمام أحمد: "**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع**" إنه دين سلام وعلم يا صديقي... قال محدثي:

- لتعد إلى دخول الإسلام في هذه القارة لنستكمل حديثنا.. أجبته بالقول:
- لقد تحدثنا عن شبه جزيرة أيبيريا وكيف دخلها هذا الدين الحنيف.. وانتهينا إلى ما اتخذ في الشأن نحو المسلمين، ومحوهم من الوجود وفق قانون قشتاله وقانون أرغون والذي صنفهم إلى:

  - عبيد
  - ومعتنقون
  - والذين تنصروا
  - والمدجنون

وناهيك عن الأرقاء منهم يا صاح، وكيف كانت حياتهم مستباحة وحرماتهم مع تقتيلهم وتعذيبهم والتفريق بين أبناء الأسرة الواحدة، ثم إجبارهم على التنصر بقوة السيف خاصة الأطفال، وكما حدثتك.

وكما رأيت فقد انطفأت في الأندلس أنوار الإسلام وانطوت صفحات هي من أزهى صفحات الحضارة الإنسانية وأنصعها وتفردّها!! وها نحن أولاء يا صاح نرى كيف حورب الإسلام بالسيف ظلماً وقهراً...

قال محدثي:

- لنستكمل حديثنا عن دخول الإسلام في القارة: القارة الأوروبية:

واستكملت الحديث:

- تفوّق المسلمون في ميدان البحر مثلما تفوقوا في ميادين الفيافي والصحاري، فأنشأوا السفن والأساطيل والموانى البحرية، وكسبوا معركة **ذات الصواري** الحاسمة، وهزموا البيزنطيين شر هزيمة، ومن ثم فُتح أمامهم البحر المتوسط وجزره، وتمكنوا بالفعل من تأمين البلاد الإسلامية من الأخطار المرتقبة براً وبحراً.

وفي حالة أقرب منها إلى الكر والفر تمكن المسلمون من فتح جزر هذا البحر: سردينيا وكورسيكا وكبريت ومالطة وصقلية وروسي وقبرص وبانتلاريا ومختلف جزر جنوب إيطاليا.

وهنا سأل محدثي:

- ومتى كان ذلك؟!!

أجبته:

- منذ عام ٢٨ هجرياً حتى عام ٩٧٣ هجرياً، وبعد ذلك أيضاً، وكما أخبرتك فلقد كانت هذه الفتوحات في معظمها بين كرّوفرّ وانتصار وإخفاق غير أنها كانت كلها حرباً في سبيل الله.

- وما موقف هذه الجزر الآن، أقصد موقفها من الوجود الإسلامي؟!

أجبت:

- حسبك أن تقرأ ما ذكره ياقوت الحمري وابن حوقل وغيرهما من الرحالة، وكذلك كتاب الجغرافيا التاريخية:

أن المسلمين في تلك الجزر وما جاورها حين استقروا فيها كانت لهم تجارة وزراعة وحضارة مشرفة، ويكفي أن تعلم أن صقلية الإسلامية قد أسهمت وأثرت بآدابها وشعرائها مثل ابن حمديس وابن القطاع اللغوي وغيرهما في الأدب الإيطالي..

- إنني على بيّنة من ذلك .

- والآن فـثمة صراعات متعددة، فحتى هذه اللحظة فإن قبرص على سبيل المثال يتقاسم فيها المسلمون والمسيحيون السيطرة على الجزيرة.

أما في صقلية فقد استولى عليها النورمانديون عام ٤٨٣هـ - ١٠٩٠ ميلادياً ثم آثر المسلمون تركها بعد أن استولى عليها فرسان القديس يوحنا عام ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠ ميلادياً وقد اتخذوها قاعدة لحرب المسلمين، وهكذا رودس...

وهكـذا يا أستاذ اللغات الشرقية وآدابها ترى بكل وضوح وجلاء أن المسلمين قد حوربوا بوجه عدائي شديد العداء يحمل كل علامات التعصب الديني والإساءة للشخصية المسلمة وأسسها الفكرية.

قال محدثي:

- نعود للفتوحات. أجبته:

- لم يكـتف المـسلمون بالجزر المتوسطية وإنما تقدموا إلى بلاد السلاحل الجنوبي في البحـر المتوسـط، وفتحوا بلاد جنوب إيطاليا، حتى أدركوا روما، وكأن هدف أولـئك الفاتحين أن يكملوا عَبر الجانب الشرقي من جبال الألب ما سبق أن فعلوه بالجانب الغربي منه. وأكمل محدثي عبارتي:

- تقصد أندلسكم الإسلامي. وأجبته:

- تماماً... ولكن للأسف لم يتمكن المسلمون من إنشاء وجود إسلامي في هذه البقاع اللهم إلا **ميناء تولوز** أو كما يدعونه طولون الفرنسي الذي كان يمثل حينذاك أحد الموانى الفرنسية الهامة على ساحل البحر المتوسط.

وتساءل محدثي:

- وماذا كان موقف الدولة العثمانية من ذلك كله؟!!.

أجبت:

- انشغلت بالحروب الطاحنة في قلب أوروبا بالإضافة إلى جهودها في حماية الساحل الأفريقـــي من الاعتداءات الأسبانية المتتالية التي كانت تطارد المسلمين الفارين من الأندلس.

- إنّي أستطيع أن أقول لك بكل ثقة أن الدولة العثمانية لو كانت قد رتّبت أولوياتها بشكل مختلف لتغّير دون أدنى شك وجه التاريخ في أوروبا بل والعالم أجمع.

قلت لأستاذ التاريخ:

- أنت محق تماماً فيما تقوله يا صديقي .   وأعقبت:-

- ... ولتَعُم العالم بأسره بمبادئ الإسلام والسلام والحق والعدل... وكل ما فيه الخير لبني الإنسان بمختلف أجناسهم.وتساءل على الفور:

- أريد المزيد من التوضيح والتفسير، لأن هذه القضية تشغل بال العالم بأسره... هذه الآونـــة وأجـــبت: سأوّضح لك، الإسلام يا صاح: "**هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل، ذلك لأن المؤمن أخذ دينه عن ربه، ولم يأخذه عن رأيه، وأن المؤمن يُعرف إيمانه في عمله**".   ثم سألته:

- أتعرف لمن هذه المقولة؟!   أجاب:

- هي للإمام علي بن أبي طالب دون ريب.. ثم استكمل حديثه قائلاً:

- إنـــي أعلم أن الإسلام في اللغة إنما يعني القبول والخضوع والانقياد والطاعة، وأن لفظـــة مشتق من سلم بمعنى خلص وأمن وبرئ، وأن الإسلام يعني الأمان والصلح أليس كذلك ؟!!   أجبته:

- ولهذا كانت تحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال:

- **المــؤمن يُعرف إيمانه من عمله**... حسناً، لنعد إلى ما كّنا بدأنا فيه..، ولنرى ماذا فعلت الدولة العثمانية في ضوء هذا المبدأ وهذه العقيدة السامية.   قلت:

- لقد أرادت بالفعل نشر تعاليمه الإسلامي في ربوع القارة كلها، ولو أنها كانت قد رتبت أولوياتها بطريقة مختلفة لتغيّر وجه التاريخ في العالم أجمع.   وسأل:

- ولكن ما الذي حدث في ضوء ما قدمت؟!   قلت:

- لا بأس أن نبدأ بالقرن الرابع الهجري حين أرسل **ملك البلغار** إلى الخليفة العباسي أن يرسل لبلاده من يعلم الناس تعاليمه الدين الإسلامي.

قال أستاذ الآداب الشرقية:

- لعله كان في خطر من احتمال مداهمة القراصنة الفايكنج، تلك القبائل المتبربرة والتي كانت بمثابة شوكة في خاصرة أوروبا.   أجبت:

- قل ما تشاء في تفسير التاريخ أيها الباحث، ولكن ما حملته الأيام يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن ملك البلغار كانت لديه رغبة صادقة للتعرف على دين الله ولذلك اتــبعه سواد مملكته الذين أقبلوا على فهم شريعة هذا الدين السمح خاصة بعد أن أرسل الخليفة العباسي من يقوم بمهمة الدعوة والإرشاد.

- واذكــر أنــه كان من بين هذا الوفد الرحالة الشهير "**ابن فضلان**" الذي عاني من مشقة السفر وعثاء الطريق ووطأته الكثير...

- وها أنت ترى أن الجهاد الإسلامي على امتداد العصور كان فتحا إنسانياً كما كان تجربة فريدة في تاريخ البشرية كلها من أزلها إلى أبدها.

و لم أحظ بإجابة من محدثي فاستطردت:

- لقد كان ذلك نقطة انطلاق في منطقة شرق أوروبا.... ألعجيب في أمر هذا **الدين الطــيار** – كما يحلو للبعض أن يطلق عليه – أن أثره وفضله كانا شديد الوطأة لا

علـــى الأجيال التالية من البلغار فحسب، بل على علمائهم ومفكريهم فمضوا في توثيق عري هذا الدين في مختلف المناطق المجاورة وخاصة الشعوب التركية.

يشير الدكتور محمد الراجحي إلى دور **بلغار الفولجا** في الجهاد في الشمال الروسي حـــيث بـــذل المسلمون أولئك البلغار غاية جهدهم في نشر الإسلام بين الروس، وأرســـلوا وفودهم من الدعاة إلى ملوكهم تعرض عليهم الإسلام وشرائعه، إلا أن الـــروس قد آثروا البقاء على شركهم بعد أن علموا أن الإسلام يحرم الخمر ولحم الخنزيـــر والبغاء وما إلى ذلك... فاتجهوا إلى **المغول** لإقناعهم بدين الله الحنيف دين الـــسلام والحـــق، ولا عجب فقد دخل دين السلام إلى قلوبهم وعقولهم واستبدلوا قانـــونهم الشهير والذي يطلق عليه: "**الياسا**" بالشريعة الإسلامية، وكما ترى فقد أنقذ الإسلام البشرية جمعاء من ويلات وأخطار ومهالك المغول والتتار.

- لعلك تقصد أن الإسلام هنا قد حارب بسيف العقل.
- لا بأس من هذا التعبير، وفي هذا الصدد يحدثنا الدكتور/ عبد الحميد سلميان في كتابه "انتشار الإسلام في أوروبا" إذ يقول عن هؤلاء التتار:

"وتمسكت أجيالهم المتتالية بالإسلام، وذلك بعد أن ضعفت شـــوكتهم وتراجعت قوهم، ولا تزال بقاياهم في تتارستان وجمهـــوريات الاتحاد السوفيتي السابق على دين الإسلام وعقديته، رغم ما لاقوه من ضغوط واضطهاد وقهر في ظل روســـيا القيصرية ثم الشيوعيين الروس وغيرهم، ولا تزال آثار الماضي الإسلامي قائمة في عدد من الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي في حوض الفولجا..."

ونعود إلى بلغار الفولجا ورحلتهم مع الإسلام بعد أن اعتنقوه دينا وعقيدة، فقد اتسعت علاقـــاتهم في ظـــل ذلـــك مـــع الممالـــك الإســـلامية في المـــشرق مـــثل خـــوارزم والـــسامانيين....وكـــذلك إسلام كثير من شعوب جمهوريات روسيا الاتحادية، رغم ما تعرضوا له من هجمات شرسة من الروس بشكل وحشي لا مثيل له.

وأضفت:

- بعـــد ذلك أنت تعرف يا أستاذ التاريخ ما جرى للمسلمين في عهد القيصر **بطرس الأكبر وكاترينا الثانية** على نسق محاكم التفتيش الأسبانية ولكن بصورة مخالفة.

وصمت متحدثي كثيراً يفكر فيما عساه أن يقوله... وطال صمته ثم قال أخيراً:

- وأين كانت الدولة العثمانية حامية حمى عرى الإسلام؟!!

قلت:

- لقد انهكت نفسها بنفسها... وتخلت بكل أسف عن الكثير من مبادئها بمعاهدات ما أنزل الله بها من سلطان...

قال محدثي:

- باعتـــباري أستاذاً للتاريخ أيمكنني القول أن الشيوعيين لم يدخروا وسعاً في سعيهم لإخـــضاع المـــسلمين ومحـــو الإســـلام من قلوبهم ومطاردة علماء التتار والبلقان والأتراك...

- هذا هو ما حدث تماماً حتى تصدع النظام الشيوعي الذي لا يؤمن بالأديان، وتفتت الاتحاد السوفيتي في أوائل التسعينات من القرن العشرين كما تعلم... ثم قلت:

- وما حدث في البلقان حدث كذلك في التي تقع في شمال البحر الأسود والتي كانت عاصـــمتها تسمى "**آق مسجد**" بمعنى "**المسجد الأبيض**"... وكما تعلم فقد صال وجـــال التـــتار بحملات كاسحة ساحقة، واحتلوا روسيا لنحو قرنين ونصف من الـــزمان بعد أن أحرقوها، ولعلك توافقني الرأي يا صاح، لو لم يسلم هؤلاء التتار

ويجـــنحوا للسلم الإسلامي وآفاقه السمحاء، لكان مصير البشرية غير ما آلت إليه اليوم.

ودعني أسألك يا أستاذ الآداب الشرقية:

- أليـــست هـــذه خيانة عظمى للأمانة التي حملها الإنسان الظلوم الجهول. وتساءل أستاذ الآداب الشرقية:

- ودعني أصرح لك إن الانتكاسة التي يعيشها عالمنا اليوم إنما سببها هو رفض البعض **منهج الله** في إدارة الحياة.. وجاء السؤال:

- والحل؟! أجبت:

- لا بد من صيغة "لوفاق عالمي" تصنع من الوجود الإنساني كله وحدة إنسانية لما فيه خير الجميع في هذه الحياة الدنيا، ودعني أتساءل بكل الصدق التاريخي:

هـــل هـــذه الصيغة تجدها يا أستاذ الآداب الشرقية في **اليهودية** التي حرفها أتباعها فـــصارت **نـــزعة عنصرية** ترى غير اليهود إماءً لهم، وتلحظ هذا في التلمود صراحة وقد فسروا به التوراة على هواهم ومختلف نزعاتهم.

هل هذه الصيغة تجدها يا صاح في **النصرانية؟!** وجاء سؤاله سريعاً:

- وما الضير في ذلك؟!!!! أجبته بالقول:

- وهل للنصرانية منهج لريادة الحياة؟!! أضفت:

- هي كما تعلم نزعة روحية تدعو إلى "الملكوت الأعلى" بمنهج غامض بكافة وسائله وغاياتـــه وأهدافـــه... هل تجده في النظام الرأسمالي الذي انهار أخيراً أم أنك كنت ستجده في النظام الشيوعي الذي كان يقتل في الإنسان أجمل معاني إنسانيته حيث لا ماضـــي له ولا مستقبل، وتسبب في كوارث متلاحقة نالت الشرق والغرب بل هو كما يقرر العالم الموسوعي الدكتور/ **عبد العظيم المطعني** إذ يقول:

"إن الشيوعية تدعو الإنسان لأن يكون حيواناً أعجم ممسوخ التكوين لا ماضي له ولا مستقبل بل لحظة حاضرة يأكل فيها كما تأكل الأنعام بل هو أضل".

واستطردت:

- هذا الوفاق الإنساني العالمي المرتقب ستجده في الإسلام دون غيره لأنه يفرض عدداً من المعايير الأخلاقية... هذه المعايير ثابتة، لأنها صادرة من الله، جل ثناؤه وتعالت أسماؤه وهي ثابتة في كل من مبادئها ومفاهيمها وكذلك في تطبيقها.

- وماذا عن الأيديولوجية الغربية ؟!! قلت:

- الأيديولوجية الغربية تسمح بأن يختار الناس المعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة في عصرهم، وكما أخبرتك سلفاً فإن نظرية الغرب عامة تقوم أساساً على مركزية الإنسان وفق رغباته وغرائزه وتطلعاته، بينما في الإسلام فإن هذه المركزية تتمحور حول محبة الله وعبادته، حيث يمتلئ قلبه مهابة وتمتلئ نفسه وقاراً وتعظيماً فيخجل من معصيته ويستحي من مخالفته أو الخروج عن طاعته وبقدر تمسكه بذلك ومحافظته عليه تعلو درجته ويرتفع مقامه وتسمو مكانته فيصبح من أهل ولاية الله ورعايته ومنزل نعمته ومحط رحمته وغفرانه... وهذا أقصى ما يطلبه الإنسان ويتمناه طوال حياته بل وبعد مماته... فما رأيك؟

- ولعلك تتفق معي يا صاح في أن الدين الإسلامي لا يضيق بمخالفيه ذرعاً، كما أنه لا يستبيح دماء أعدائه بل أنه كان حريصاً دوماً كي يكون السلام هو الأصل، وأن تكون الحرب والتي هي "**مشقّة**" عمل طارئ مؤقت إذا دعت الضرورة إليها.

- تمعن وتأمل يا صاح الكبائر التي ارتكبها **يوشع بن نون** عند غزو فلسطين.
- وتأمل الصراع بين **اليهودية والمسيحية** عندما تمكنت اليهودية من الحكام في اليمن ولم تقبل أن تعيش في سلام إلى جانب المسيحية.

- وتمعن ما حدث من ملك اليمن اليهودي الذي أوقد النار في الأخاديد ودفع إليها الآلاف من المسيحيين أحياء...
- تمعن وتأمل الحرب من الغرب والروم قبل الإسلام وإبادة وحرق كل ما تقع عليه أعينهم.
- وتأمل الحرب بين الفرس والروم قبل الإسلام، وما ارتكبه كل طرف منهما في التنكيل بالآخر.
- ثم تأمل الحكمة الإلهية في سورة التوبة: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾.

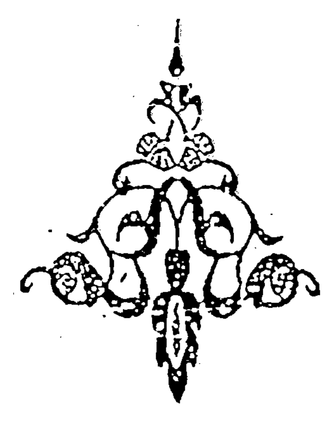
فمن مبادئ الإسلام إن استأمنك مشرك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن؛ فأمّنه حتى يسمع كلام الله ويتدبّره ويطلع على حقيقة الأمر، فإن لم يسلم فاحرسه وأوصله لدار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله دون غدر ولا خيانة...

إنه منهج الهداية يا صاح لا منهج الإبادة

إنه منهج السلام يا صاح لا منهج العداوة

وإليك أخيراً يا صاح هذه الحكمة الإلهية في سورة الزخرف: إذ يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

ومن أصدق من الله قيلا؟!!



﴿ حوار حول مفهوم الجهاد ﴾

﴿ بوجه عام ﴾

مــضت عــدة أســابيع احتجت فيها محدثي أستاذ الآداب الشرقية، ثم جاء ليسألني السؤال الثاني:

- دعني أسألك يا صديقي من جديد: ألا ترى أنكم معشر المسلمين تسعون بكافة الطرق المشروعة وغير المشروعة **من أجل أسلمة العالم كافة؟!!** كما وأن وسائلكم في ذلك هو الإرهــاب والقــتل والتدمير، مما نتج عنه ما اصطلح تسميته **بـ فوبيا الإسلام**، حتى أصبح الإسلام هذه الآونة يرادف مصطلح الإرهاب؟! وتمهلت قليلاً قبل أن أجيبه، ثم قلت: وماذا عن فوبيا هذه المنظمات وتلك الجماعات:

- جماعة "الحزب الشيوعي الثوري" وهي التي ظهرت في روسيا مع بداية القرن العشرين. ألا تعد من أبرز منظمات الإرهاب وحسبك أنها اغتالت ستة من كبار الزعماء بروسيا في بداية نشاطها. وناهيك عن جماعة **ستيرن وكاهاناجاي**.
- وناهيك عن جماعة **فرسان المعبد**.
- وناهيك عن جماعة **الصليب الوردي**.
- وناهيك عن جماعة **شهود يهوه**.
- وناهيك عن منظمة **إيتا الانفصالية الباسيكية** بأسبانيا.
- وناهيك عن جماعة **بادر ماينهوف** الألمانية.
- وناهيك عن جماعة **الألوية الحمراء** الإيطالية.

وناهــيك عن الإبادة الجماعية للسكان الأصليين الذين أصبحوا ذكرى في الحاضر، وتراوحت تقديرات قتلاهم بين ٢٠ مليوناً في حدها الأدنى ومائة مليون في حدها الأقصى، وكما تعلم فقد كان ذلك في أمريكا الشمالية ونيوزلندا واستراليا وغيرها.

وناهــيك عــن الجمعــيات السّرية التي تدفعها الصهيونية ليستنشقها المخدوعون، وغيرهم.. وغيرهم.. وغيرهم.. فأين الفوبيا في حقيقة الأمر؟! أين ؟!!!

وأضفت القول:

- بيـــنما في شريعة الإسلام يا صاح: **قتل النفس مسلمة كانت أم غير مسلمة يُعد من كبائر الذنوب والموبقات**... ما لم يكن على وجه الحق الذي يأذن به الله تعالى، وسأل محدثي:

- وما هو هذا الحق؟!! قلت:

- سأخبرك به،ولكن دعنا نتأمل ما قصّة الله تعالى علينا من قصة نبيه موسى عليه السلام في سورة القصص.

يقـــول المـــولى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

ولعلـــك قد تيقنت أن الذي استغاث بموسى شخص من جماعته أي أنه: **إسرائيلي مسلم**، كما وأن الذي استغاثه عليه شخص من عدوّه، **فهو قبطي من جماعة فرعون.**

ومن الواضح في السّياق أن القبطي الكافر كان معتدياً على الإسرائيلي المسلم.

هـــنا أراد موسى عليه السلام **الدفاع بالحق** عن من هو من شيعته، **ولم يكن قصده قـــط قتل الآخر أو هلاكه**، وكان عليه السلام قد أوتى في الخلق وقوة البدن ما جعل هذا الآخر يسقط قتيلاً حين ضربه موسى بجمع كفه، إلا أنه سرعان ما أبدى ندمه وتأسّفه على مـــا أفضى إليه وكزُه من قتل القبطي الكافر الذي كان ظالماً للإسرائيلي، واعتبر موسى أن هـــذا القـــتل غير المتعمد من إغواء الشيطان الذي هيّج غضبه فوكزه، وأنه قد ظلم نفسه بـــذلك الخطأ الجسيم الذي لم يكن متعمداً؛ وطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى، وعاهد نفسه ألا يعين أو يساعد أحداً على معصية أو إجرام أو ما شابه ذلك.

وها نحن أولا نرى المغزى من هذه القصة، **وهو قبح الإقدام على قتل النفس البريئة** التي لا تستحق القتل، حتى لو كانت هذه النفس لكافر أثيم.

فذلك عملٍ منافٍ لشريعة الإسلام، **دين السلام والحق، دين الخير والعدل**، وأضفت قائلاً:

- ولعلـــك تعلم يا صاح ما قام به قوم هذا القبطي الكافر من بلاء عظيم لبني إسرائيل.. ناهيك.!!!

قال أستاذ الآداب الشرقية، بلهجة عربية فصيحة:

- استحيوا نساءهم وقتلوا أبناءهم وساموهم سوء العذاب... قلت:

- بينما تنص شريعة الإسلام: **أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز، كما وأن الـــذي يقتل النفس بغير الحق الذي أذن به الله تعالى يُعد من الفاسد في الأرض حـــتى لـــو زعـــم أنه مصلح أو ادعى أنه عمل مباح، فهو ضال مُضل خارج عن الشريعة الإسلامية التي عظم المولى الخالق جل شأنه الدماء وشدد في حرمتها وجعل التهاون فيها ذنباً عظيماً وفساداً كبيراً.**

وهنا سأل محدثي:

- وما هو هذا الحق في شريعتكم؟!!

قلت:

- كأن يكون مسلماً مؤمناً ثم ارتد عن الإسلام، أو يريد أن يفتنك عن دينك.

وتساءل محدثي:

- والجهاد؟!!

- يقـــول المولى تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

ويقـــول العلامة ابن القيم: "**علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هدايته أعظم جهاداً**"، وأفرض الجهاد يا صاح في الإسلام:

- جهاد النفس.
- وجهاد الهوى.
- وجهاد الشيطان.
- وجهاد الدنيا.

فمـــن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

يقول الهادي الأمين:-

"أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه"

كما يقول ابن القيم: "فإذا استكمل العبد هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن الـــسلف مجمعـــون على أن العالِم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه، فمن علم وعمل وعلّم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات".

وأضفت:

- أما من يجاهدون أنفسهم على الدعوة **بلا علم ولا فقه في دين الله، فسينتشر لا محالة على أيديهم فساد كثير وشر مستطير وإثم لا مثيل له ولا نظير.**

ولكن لتعلم يا صديقي أن **للجهاد ضوابط وشروط** وهي:

- أن يكـــون الجهـــاد بعلم وفقه في الدين، ولعلك تعلم أن من عَبَدَ الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

وعلق أستاذ اللغات الشرقية بقوله:-

- أظن أنها مقولة لعمر بن عبد العزيز.

- هـــي كـــذلك بالفعل، ولقد وضح ذلك ابن تيمية فقال: "والواجب أن يعتبر في أمور الجهـــاد برأي أهل الدين الصحيح، الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا، دون أهل الدنيا الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين، **فلا يؤخذ برأيهم ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا**".

وكما يقول أيضاً الفقيه **صالح الفوزان:**

"والجهاد له باب عظيم في مؤلفات أهل العلم يرجع إليها وتستقر هذه الأحكام من كـــتاب الله وسنة رسوله، ويسأل عنها أهل العلم وأهل البصيرة، لأن الجهاد أمره عظيم إذا نظّـــم وصار على ما رسمه الله عز وجل صار جهاداً نافعاً للأمة، أما إذا كان **فوضى وبغير بصيرة وبغير علم فإنه يصبح نكسة للأمة وعلى المسلمين، فكم يقتل من المسلمين بسبب مغامـــرة جاهـــل أغضب الكفار** وهم أقوى منه – فانقضوا على المسلمين تقتيلاً وتشريداً وخراباً، ولا حول ولا قوة إلا بالله، **ويسمون هذه المغامرة بالجهاد وهذا ليس هو الجهاد،**

لأنه لم تتوفر شروطه، و لم تتحقق أركانه، فهو ليس جهاداً، **إنما هو عدوان لا يأمر الله عز وجل به:**

واستطردت قائلاً:

- أن يكـــون **الجهـــاد** مع الرحمة للخلق والرفق بهم، ذلك لأن الجهاد ليس مشروعاً في الإسلام للتشديد على النفس أو البطش بالآخرين، ويتفق علماء المسلمين على ألا يعتبر هذا من الجهاد في سبيل الله.

وتأمل يا صاح ما جاء في الأثر:

"لا يأمـــر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهي عنه، رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهي عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهي عنه".

- أن يكون **الجهاد** كذلك بالعدل وأن يكون مع **إمام المسلمين** أو بإذنه وتحكيم الكتاب والسنة في كل صغيرة وكبيرة.

وتمعن يا صديقي في قول النبي ﷺ:

"مـــن خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات: مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت رايـــة عُمِـــيّة يغضب لعصبيّة أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبة فقتل فقتله جاهلية، ومن خـــرج علـــى أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه".

- وأخيراً ألا يكون **الجهاد** من أجل حظ من الدنيا أو لإظهار الشجاعة فيقال: إنه جرئ.

ويحدثـــنا المفكـــر الإســـلامي الدكتور عبد الله مشعل في هذا الصدد فيقول في كتابه (المـــسلمون والنظام العالمي الجديد): "فالمقطوع به في جميع الديانات أنه لا حق لأحد

أن ينصّب نفسه فوق غيره ديناً واستقامة، ثم يبيح لنفسه أن يعاقب هو نيابة عن الله من اعتبره خارجاً عن الدين كما يفهمه هو".

وهكـــذا نـــرى يـــا صديقي أن من **يسلك سبيلاً خاطئاً غير منضبط بالضوابط الإسلامية الشرعية،** تكون عاقبة عمله هذا إعطاء **الغير** ذريعة لمهاجمة الإسلام، دين السلام الذي لا يريد من الإنسان وما حول الإنسان **إلاّ سلام النفس** في عاقبتها، إنه الدين الذي يرى أن المعنى الحقيقي للسّلام إنما هو المعنى الغالب المتصرف بالإنسانية في دنياها.

ولتعجب من هؤلاء المتألبين الذين أطلقوا على الدين السمح: "فوبيا الإسلام" ؟!!

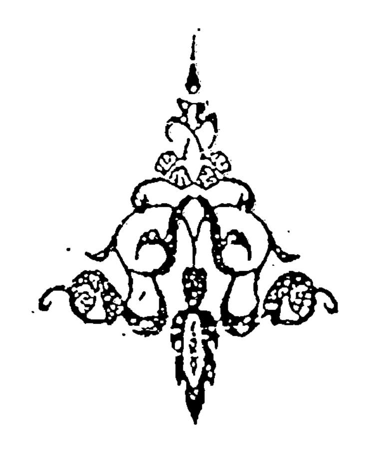
وتمعـــن يـــا صاح وتأمل قول المصطفى من حديث حذيفة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

"إن أخـــوف مـــا أخاف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رئيت بهجته عليه وكان ردءاً للإســـلام، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك، قلت: يا نبي الله أيهما أولى بالشرك: الرامي أو المرمي؟! قال: بل الرامي؟!!

وتأمـــل وتمعن أخيراً قول نبي الهدى فيما رواه البخاري: **"لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا"**

بأبي وأمي أنت أيها الهادي الأعظم... ولك الله يا نور الحياة وشرفها.

ولم يعلق أستاذ اللغات بشيء.



الحوار الأخير

مع أستاذ الآداب الشرقية

وكـــان اللقاء الأخير مع صديقي الذي ابتدرني بالقول؛ ولقد قمت بتسجيل ما دار بيننا من حوارات، هذه الحوارات أضافت إليّ الكثير دون شك مما كنت لا أعلمه... دعني أشـــكرك على حلمك وسعة صدرك فيما طرحته عليك من تساؤلات وإيضاحات، ربما تكـــون قـــد تجـــاوزت أحياناً الحدود المتعارف عليها... ولكن كان لا بد من الوصول للحقيقة.. التي كنت في منتهى الشغف للوصول إليها.. قلت.

- ولعلك تكون قد عرفتها، والتاريخ شاهد حق وشاهد عدل وحكم بيننا ،

قال:

- ولكن... يبقى السؤال؟!! وتساءلت بدوري: وما هو؟!! قال:

- أكاد أن أقول كأستاذ تاريخ "**هناك إسلام**"... ولكن ربما لا يوجد مسلمون هناك؟!! ما رأيك؟!! وأطرقت كثيراً ثم أجبته:

- يا لها من معادلة عجيبة حقاً!!! وتمهلت قليلاً ثم استطردت:

- ... دعني إذن أوضح لك حقيقة النصف الثاني منها. ما رأيك؟! قال:

- هذا هو بيت القصيد.

- بدايـــة أرجـــو أن توافقني على أنه قد التبس على العالم التمييز بين الإرهاب وغيره من الأعمال المشروعة،

لقد سقط العالم الإسلامي جميعاً يا صاح تحت طرقات الاستعمار، فيما عدا اليمن وقلب الجزيرة العربية.... وكذلك هضبة إيران والأناضول ولو أنهما لم تنجو من مناطق النفوذ.أليس كذلك....؟! أضاف أستاذ اللغات الشرقية:

- لقد حدث ذلك بالفعل. واستطردت:

- وكـــان التحدي **تحدي** حياة أو موت بالنسبة للإسلام والمسلمين.

..... هنا يتساءل المفكر الإسلامي الدكتور جمال حمدان:

"أمن الغريب إذن أن تلتهب الحماسة الدينية حتى تصبح النبرة الإسلامية ودعوة وحدة المؤمــنين هــي الشعار المضطرم في طول الإسلام وعرضه؟! أليس منطقياً أن يتخندق الإســلام المثخن بالجراح في حمى الدين؟؟ وأن يتخذ العمل السياسي من أجل الكفاح التحرري شكلاً دينياً؟! لا سيما أن الإسلام نفسه كعقيدة تعرَّض حينذاك لحملات لا مثيل لها من التشهير والقذف من جانب المستشرقين وغير المستشرقين. ويستطرد:

"إنها الصليبيات الجديدة، بل أشد هولاً وخطراً، و لم يكن غير الإسلام – بديهياً – خط الدفاع الأخير والوحيد.

ودعني أتساءل: ماذا تقول يا صاح عن معاناة دول الأقليات الإسلامية التي تؤلف أكثر من نصف دول العالم الإسلامي عدداً.

- ثم ماذا تقول يا صاح عن قضية القدس الشريف؟!
- وماذا تقول يا صاح عن قضية كشمير؟
- وماذا تقول يا صاح عن قضية العراق؟
- وماذا تقول يا صاح عن قضايا مقاطعات سيكيانج؟
- مــاذا تقول يا صاح عن قضية الشعب الشيشاني الذي تعرض لكل أنواع التعسف والاضطهاد منذ منتصف القرن ١٩ فتشرد وتوزع أبناءه في سيبيريا لطمس هويته؟!
- ومــاذا نقــول عن المشكلة الأفغانية التي بدأت جزءاً من صراع الحرب الباردة ثم انــتهت إلى احتلالها من قبل القوات السوفيتية أواخر عام ١٩٨٠ الأمر الذي أدى إلى ظهــور حــركة المجاهدين بعد أن نزح أكثر من خمسة ملايين من السكان إلى الدول المجاورة... وناهيك عن الإصابات والعاهات التي أصابت الكثيرين....
- وماذا تقول عن المسلمين في الفليبين...؟!! وعلى وجه الخصوص في جزر الماندناو الــتي يسكنها نحو ستة ملايين من المسلمين؟!!.... والتي كان اسمها **دار السلام** ثم تغير إلى الفلبين نسبة إلى فيليب !!

هـــناك مسلمون يا صاح في زمن التبس فيه على العالم **التمييز بين الإرهاب وغيره من الأعمال المشروعة......**

المعادلة الصحيحة يا أستاذ الآداب الشرقية:



هناك إسلام... وهناك مسلمون مضطهدون.

واستطردت قائلاً:

- مِـــن قِبَل الاستعمار الذي سلخ الأمة الإسلامية عامةً والعربية خاصةً من ذاتها وصرفها عـــن شـــريعتها، ثم فرض عليها قوانين من عنده أحل بها الحرام كالزنا والخمر والربا والميـــسر، كما عطّل فرائض عدّة، كالزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود وغيرها وغيرها.

واسمح لي أن أنقل لك ما قالته نائبة رئيس الحزب بالنرويج: "**كارينا أودنايس**". قالت:

"آن الأوان لكي تتخذ النرويج وأوروبا إجراءات لإعلان عدم قانونية الإسلام كأيدولوجية، ومعاقبة معتنقيه بالطريقة نفسها التي تعامل بها النازيه".

وهـــي لا شك ترى كغيرها من بعض المستشرقين عدم قدرة الإسلام على التعايش الـــسلمي مع الديانات الأخرى، في حين أن هذا **التعايش السلمي** بين الإسلام والديانات الأخـــرى قـــد عرفه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، أي منذ نزول الوحي على الرســـول ﷺ في عام ٦١٠م، في الوقت الذي لم يعترف العالم الغربي للآخرين في التعايش السلمي بينهم إلاّ في إعلان حقوق الإنسان الذي أعدّته الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م

وكما تحاورنا يا صديقي:

 فالإســـلام يتميز بالوسطية والاعتدال في تعايشه السلمي مع الديانات الأخرى، فهو لا يدعـــو إلى **الإسراف أو الإفراط في منهاج الحياة بوجه عام**، بل معتدلاً بين **الماديات** التي أفرط فيها المنهج اليهودي، ومعتدلاً في **الروحانيات** التي أفرط فيها المنهج المسيحي.

يقـــول المـــولى الكريم في سورة البقرة: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾.

الإســـلام كـــذلك يتميـــز بالسماح بحرية العقيدة في تعايشه السلمي مع الديانات الأخرى.

كمـــا ورد في النص القرآني في سورة يونس: ﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ** ﴾.

كما ورد في القرآن الكريم سوراً كثيرة **تبيح حرية العقيدة لغير المسلمين**، وتنهي عن إكراه أي شخص لاعتناق الإسلام، كما ورد في **السنة أيضاً** ذلك وفق القاعدة الإلهية "**واتركهم كما يدينون**".

وكمـــا جاء في كتاب الرسول ﷺ إلى أهل نجران وقد كانوا من النصارى، بأن لهم الأمـــان من الله ورسوله والمسلمين: على أموالهم وملتهم فلا يجوز المساس بها ولا يجبرون على تغييرها.

الإسلام يا صاح يقرر أن الاختلاف بين الأديان أمر وارد من الله جل ثناؤه وتعالت أسمـــاؤه، ففي ســـورة هـــود: ﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ**

﴿ مُخۡتَلِفِينَ ﴾.أي أن الاختلاف سوف يظل إلى أن يرث الله الأرض وما عليها فما رأيك؟!. وأضفت القول:

وليت هذه النائية تعلم أن المسائل الاتفاقية تشكل ٩٩% من الديانتين: الإسلامية والمسيحية ومن وجهة نظر المسيحيين أنفسهم. ما رأيك؟

- الإسلام كذلك يدعو للتعاون مع الديانات الأخرى في تعايشه السلمي معها. فقد ورد في سورة الحجرات، قول العزيز الحكيم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

- وكذلك فإن الإسلام في حالة قيام الحرب لا بد من الاستجابة للسلم إذا طلب العدو السلم وعدم مواصلة القتال. كما ورد في سورة الأنفال: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾.

كما لا يجوز إهدار دم من أعلن استسلامه وبعد القتال لا بد من معاملة الأسرى معاملة حسنة، طبقاً لقوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾.

كما كلف المقاتل المسلم أن يقدم للأسير الطعام والشراب والكسوة الملائمة التي تقيه برد الشتاء وحر الصيف، وأن يقدم له العلاج الناجح.

- وأخيراً فإن الإسلام دين سلام في تعايشه السلمي مع الديانات الأخرى.

فالأصل في الإسلام يا صديقي دائماً أبداً وفي كل العهود هو **السلام**. يقول المولى عــز وجــل في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾.



ولتأذن لي يا صاح أن أنقل لك ما ورد عن مفكر مسيحي مصري إذ يقول:

وقــد وجهــت أجهزة الإعلام الغربية والأمريكية والساسة الغربيون والمستشرقون اتهاماتهم ضد الإسلام بأن الجهاد يعني التطرف وهذا غير حقيقي لأن الجهاد لا يعني التطرف واســتخدام العنف في جميع الأحوال لأن القاعدة في الإسلام وفي القرآن والسنة النبوية هي تحــريم الحــرب إلا دفاعاً عن النفس والمال وأرض الإسلام أو دفعاً لظلم أو استرداداً لحق مغتصب وهو ما يطلق عليه في القانون الدولي **حق الدفاع المشروع** وهذا ما هو موجود في الكــتاب والــسنة وهما دستور الإسلام والمسلمين، ولا علاقة للإسلام ببعض الفتاوى التي ظهرت في فترات ضيق الأفق أو فتاوى ظهرت لأسباب سياسية، فهي فتاوى غير ملزمة وما يجــب أن نأخذ به هو ما ورد في القرآن والسنة وهذا يمثل صحيح الدين الإسلامي، وعلى ذلك فإن بعض الفتاوى الشاذة عن الفكر الإسلامي مثل بعض فرق الخوارج التي أفتت بأن الجهــاد بالــسيف لنشر الإسلام فريضة سادسة بجانب الفرائض الخمس الأخرى وهذا **لا يــؤكده الواقــع في عهــد الرسول ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين**، فلم يحدث أن نشر الإســلام بالعنف بل كان نشر الإسلام بالخير الحر طبقاً لما ورد في الإسلام ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ فــلا يجوز إكراه أحد على اعتناق الدين الإسلامي، وكــان الخيار بين الإسلام أو الجزية أو القتال لأن الإسلام دين سلام، ولذلك يجب **إلغاء وصــف الجماعة الإسلامية عن تلك الجماعات**، وأن نسميها بجماعات العنف المتطرفة، لأنها تتصرف عكس مبادئ الإسلام بتحريم القتل.

ويضيف هذا المفكر الموضوعي الدكتور/ نبيل لوقا بباوي فيقول: "... أما ما حدث من بعض الحكام والولاة في بعض العصور من الخروج عن نصوص القرآن الصريحة من أنه دين سلام، فلا يتحملها الإسلام والمسلمون، **بل يتحمل وزرها من يرتكب أي تصرف لا يقره الإسلام**، وهذا ما ننادي به بعدم وصف تلك الجماعات المتطرفة بالجماعة الإسلامية، بل نسميها **الجماعات المتطرفة بحيث لا نضيف إليها كلمة إسلامية**". ثم قلت:

الإسلام يا صديقي يرفض العنف في **القول** فما بالك في **الفعل**؟!

انظر يا صديقي إلى هذا الأفق الرفيع الذي يكشف عن مدى رغبة الإسلام في السلام، حيث يقول رب العزة في سورة الأحزاب: **﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾**.

وجاء رد الصديق:

- ولكن هناك فتوى ابن تيمية في قتال كل فئة تمتنع عن أداء شريعة ظاهرة متواترة من شرائع الإسلام.فما الرأي؟!!
- يرد الشيخ يوسف القرضاوي على ذلك بالقول: إن الذي يقاتل هذه الفئة الممتنعة **ولي الأمر**، كما فعل سيدنا أبو بكر **وليس عموم الناس وإلا أصبح الأمر فوضى**.

ويستطرد هذا العالم الجليل فيما يخص جماعات العنف الإسلامية فيقول:

"... ومن الواجب أن نناقش فقههم هذا ونرد عليه. صحيح أنها كثيراً ما تعتمد على التشابهات وتدع المحكمات وتستند إلى الجزئيات وتهمل الكليات، وتتمسك بالظواهر وتغفل المقاصد، كما تغفل ما يعارض هذه الظواهر من نصوص وقواعد، وكثيراً ما تضع الأدلة في غير موضعها وتخرجها من سياقها وإطارها... هي على أي حال لها فقه مزعوم يسوّغ العنف ويروج لدى بعض الأغرار من الشباب، والسطحيين

مـــن الناس، الذين يقفون عند السطوح ولا يغوصون في الأعماق، أساسه فقه الخوارج قديماً، الذين كانوا يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم".

ثم أضفت قائلاً:

- العـــنف يا صديقي ظاهرة عالمية وُجد في أمريكا كما وُجد في بريطانيا، كما وُجد في أسبانيا، كما وُجد في إيطاليا، وكذلك في الهند واليابان، وأيضاً في إسرائيل... ووُجد كذلك في بلاد إسلامية شتى!!!.

وهـــو دون أدنى ريب إما أن يكون: رد فعل طبيعي للاضطهاد، أو أنه سوء فهم لشرائع الأديان، **أحدهما أو كلاهما.** قال محدثي بدهائه المعتاد:

- لا شـــك في هـــذا، ولكـــن دعني أسألك مصارحاً: هل المسلمون ينطبق عليهم كلمة **"كلاهما"؟!** قلت:

- لقـــد قصصت عليك كيف طَبق المستعمرون على المسلمين قانون الغابة بكل قسوة في شـــتى بقاع الأرض وعلى مر العصور، وحتى يومنا هذا فصنعوا الظروف التي تجعل رد الفعـــل.(أو إرهـــاب كمـــا يسمونه ضرورة ولو أنك قارنت يا صاح بين البلاد التي اســـتعمرت، والـــتي لم تستعمر بعد لوجدت الفرق شاع بين هذه وتلك صدقني لقد صنعوا الظروف التي جعلت رد الفعل العنيف ضرورة.

- الحقـــيقة يـــا صديقي لقد هيأ الاستعمار البيئة الملائمة لخلق هذه الجماعات. جماعات العنف والتطرف... وما يحدث من الاستعمار الصهيوني العنصري الاستيطاني الإرهابي الوحشي أكبر برهان على ذلك وحسبك أن تتطلع على تقرير "جولد ستون" في ذلك الشأن والذي أعلن أخيراً ولا تنسى أن تذكر تلك المقولة: إذا كانت المشكلة المعروضة على هيئة الأمم المتحدة بين دولتين كبرى وصغرى، ضاعت الدولة الصغرى.

- ودعـــني أكرر القول في أن الإسلام في أشد الحاجة لدولة قوية تسانده وتحميه وترعاه أتذكر هذه العبارة!!   قال:

- أجل أذكرها تماماً.

- والآن أضيف إليها عبارة أخرى...

- ألا وهي؟!!   وأجبت:

- الإسلام في حاجة إلى مجددين.

- كيف؟!

- يا أستاذ الآداب الشرقية وآدابها تصور ما سأصوّره لك: ....

...... تصوّر أن هناك ينبوع من ماء صافٍ عذب رائق، شقّ لفيض مائه مجرى له لكي يرتوي منه العباد، يطفأون ظمأهم ويغتسلون وينعشون أبدانهم وما إلى ذلك.. ومضى هذا المجرى بعد ذلك في طريقه بين الصخور والتلال والوديان والهضاب والقيافي والسهول والـــصحاري كي يبلغ في نهاية المطاف مصبه الأخير... ألا يصادف هذا النبع الرائق وهذه المياه العذبة بعض من الشوائب- وعلى أشكالها- وقد علقت به؟!!   قال محدثي:

- لا شك...

- وهـــذا هو ما جرى للأديان في واقع الأمر يا صاح لقد بدأت الديانة المسيحية على أنها ديانة سلام ومحبة وأن السيد المسيح عليه السلام قد قال لأتباعه:

مـــن ضربك على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر، ومن سخرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين، ومن أراد أن يأخذ قميصك فأعطه إزارك، كما دعا أتباعه إلى أن يحبوا أعداءهم ويباركوا لاعنيهم.   ودعني أتساءل:

- كم قتل الكاثوليك من البروتستانت في بداية ظهورهم؟! ومن الذي أباد الهنود الحمر وسكان استراليا الأصليين؟! من؟!!

- ومن المسئول عن إبادة ما يزيد على الخمسين مليوناً من البشر إبان الحرب العالمية الثانية وفـــق مبدأ "**رأيتها ودمرهًا**"، ناهيك عن الحرب العالمية الأولى، وناهيك عن الإرهاب النووي هذه الأيام.

ألا ترى يا صاح أن **النبع الصافي العذب** قد تبدل ليصير ملحاً أجاجاً علقما؟!!!

ثم أضفت:

- ولتفسح لي صدرك أولاً كي أحدثك عن تلك الشوائب التي لحقت بالإسلام.
- فلقد فهم بعض المسلمين أن الإسلام دين **عبادة فحسب** كغيره من الأديان، فأسرفوا في أمـــر هـــذه العبادات حتى ابتدعوا في الإسلام – دين الوسطية – **رهبانية** كتلك التي ابتدعها أهل الأديان قبلهم: يقضون حياهم في الذكر بتكرير النطق بالشهادتين، وقيام الليل وصوم النهار، حتى إذا ما جاء موعد الحج هرعوا إليه كل عام... وهكذا.

والإسلام كما أخبرتك **ليس دين عبادة فحسب**، وإنما هو **هُضة دينية ومدنية معاً**، فهـــو يبتغي النهوض بالمسلمين **في الدين والعلم جنباً إلى جنب**، وهذه هي وظيفة الإسلام الكبرى وغايته في هذه الحياة الدنيا.

لتقـــرأ معي ما يقوله المفكر الإسلامي عبد المتعال الصعيدي في كتابه (المجددون في الإسلام)، يقول هذا المفكر :

"وهـــذه هي وظيفة الإسلام الكبرى وغايته العظمى في هذه الحياة الدنيا، وبها كان خاتمـــة الأديان، وكان الرسول الذي بُعث به خاتم الرسل، لأنه كفل بهذه الغاية **مصلحة الدنـــيا والآخـــرة**، لم تـــرجح فيها كفة مصلحة منهما على الأخرى، كما كان ذلك في الـــشرائع القديمة، فصلح **لكل زمان ومكان ولاءم كل الظروف والأحوال** وناسب كل الـــشعوب والأجـــناس من العرب وغيرهم من الشعوب السامية، إلى الفرس وغيرهم من الـــشعوب الآرية، إلى البربر وغيرهم من الشعوب الحامية لأنه نظر إليهم جميعاً على سواء

وأتـــى إليهم بشرائع عامة عادلة لا إيثار فيها لشعب على شعب ولا تمييز فيها لجنس على جنس".

ويستطرد هذا المفكر فيقول:

"والإســـلام من جهة هذه الغاية يتسع للتجديد في كل زمان، لأنه إذا كانت غاية الـــنهوض العام بالإنسانية فوسائل هذا النهوض تسير في طريق الارتقاء ولا تقف عند حد محدود ولا تتعداه...".

نحن إذا يا صديقي في حاجة إلى تجديد، تجديد الفكر لمواكبة العصر

وتعجب محدثي وقال:

- ولكن أمور العبادة في الإسلام لا تقبل التغيير، وهذا ينطبق على الصلاة والزكاة والصوم والحـــج والـــنطق بالشهادتين فمن غير الممكن التبديل أو التجديد في أحكامهم أليس كذلك قلت:
- إنه تجديد من أجل النهوض بالمسلمين في أمور دنياهم قبل أن يكون في أمور أخراهم...

ولقد تنبه الهادي الأعظم لمفهوم "**المعاصرة**" في دعوته فقال:

"إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها".

ويظهر لك يا صاح في نور هذا الحديث أن الرسول الكريم كان على يقين تام بأن كـــل ما في الحياة في تطور، ولذا وجب التجديد، بشرط أن يكون هذا **التجديد منسجماً مع روح الإسلام وقواعده منهجاً وغاية**، وكما اتفقنا فالإسلام يريد من الإنسان أن يعني **بجانبه المادي وبجانبه القلبي الروحي** وبجانبه العقلي في اتزان واتساق لا يطغى جانب على آخر.

صـــديقي: نحن حقاً في حاجة إلى مجددين يحسنون فهم الحوادث والمتغيرات، كما يحـــسنون فهم النصوص والقواعد، يأخذون معها ما يلائم هذه المتغيرات وما يتفق معها،

تأمــل معــي يا صديقي قول الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، تأمل قوله: "**يجد للناس من الأقضية (أي الأحكام) بقدر ما يجد لهم من القضايا**".

هنا قال أستاذ اللغات الشرقية والخلاصة...؟!

- الخلاصــة يا صاح أننا في أشد الحاجة لمجددين: **لا يكتفون بالنظر إلى هذا الدين من الــداخل حيث روحه وخصائصه المتسامية... ويغفلون عن النظر للقوى والمؤثرات الخارجية بما فيها من تفاعلات وصراعات وضرورة التأثر بها وما يجب أن تكون عليه وفــق مقتضيات المعاصرة وضوابطها الموضوعية والمنهجية وغاياتها والتأثير فيها، في نظرة يجب أن تكون تكاملية متناسقة بين هذا وذاك**

- ثم قلــت أخــيراً: أعترف بأننا نحن– معشر المسلمين – في أشد الحاجة لأن نفرق بين أمرين:

- **خطابنا الديني الفضائي.**
- **وخطاب المسجد** بين جمهور الداخل وجمهور الخارج والذي أظهرنا – بمنتهى الأسف – أمــام العــالم في صورة المحتكر للحقيقة، خاصةً حين يضع **الإمام** نفسه كمحتكر للحقــيقة الدينــية، وقد يهون من إنجازات الآخرين باعتبار أن ما أنجزوه إنما هو إنجاز دنيوي فحسب، لا قيمة له ولا وزن ولا يقود إلى النعيم الأبدي في الآخرة، يوم البعث والحــساب، وبانفعــالات التحريض والتجهيل فقد يصور – ذلك الإمام – مجتمعات الغرب وكأنها على حافة الهاوية ولا مخرج لها إلا باعتناق **الإسلام!!**

وحين توقفت عن الاستطراد إذا بأستاذ اللغات الشرقية يردّد بتلقائية الباحث الموضوعي المتفرد:

- ولــذلك تتفاقم يا صديقي أزمة الفهم الصحيح للإسلام دين السلام، كما يزداد القلق والتوجس والخوف والترقب تجاه خطر مجهول منتظر!   وعقبت قائلاً:

- تماماً، ويالها من فرصة مواتية سانحة للأحزاب اليمينية الأوروبية المتطرفة، وكذلك اللوبي المهـــووس بوضع الإسلام في موضع **العدو البديل للشيوعية**، وللنازيين الجدد الساعين دوماً لتشويه الصورة الحقيقية للإسلام، والتزييف المجحف لشريعته الغراء.

- هل لك أن تستوضحني تلك الصورة الحقيقية بجلاء؟!

- حسناً... الإسلام حاكم وليس محكوماً عليه يا صاح، أنزله رب الأرباب متضمناً لكل ما تحتاج إليه البشرية من "هداية الوحي" إلى قيام الساعة وفي كل بيئة من البيئات.

.... هـــناك حقـــاً جوانب في حياة الإنسان تخضع للتغير، ولما كان شأنها كذلك فلم يحسم الإسلام الأمر فيها، وذلك أمر من أمور الإعجاز التي تدل على أن هذا الإسلام: ديـــن الله الذي يعلم علم اليقين من خلق. ثم أضفت القول: ولهذا فقد وضع الإسلام لهـــذه المتغيرات التي لا تعد **قواعد عامة وأسساً كلية** ينطلق منها المجددون والمجتهدون الـــذين يحسنون فهم المستجد والمتغير. بشرط أن يكون هذا الاجتهاد **جماعياً** في صورة مجمع فقهي تناقش فيه الأفكار وتمحص الآراء وبشرط أن يكون هذا المجمع عالمياً بعيداً عن سلطة الحكومات وتأثيرها.

۞ وفي هذا الصدد يحدثنا الدكتور القرضاوي فيقول: "**.... إن عصرنا قد كثرت فيه الأدعـــياء والمغـــرورون وانتـــشر المتهورون والمتعلقون الذين لو فتح لهم الباب على مصراعيه لاجترأوا على حدود الله وغيروا معالم الشريعة إرضاءً لثروة أو سعياً لشهرة، أو اتباعاً لهوى ملك أو رئيس أو أمير، وبهذا يبيت الأمر فوضى**".

وجهة النظر يجب أن تكون متكاملة ومتناسقة بين هذا وذاك كما أوضحت لك. ثم قلت أخيراً ولتبدأ بنفسك أيها المستشرق، يا أستاذ اللغات الشرقية وآدابها.

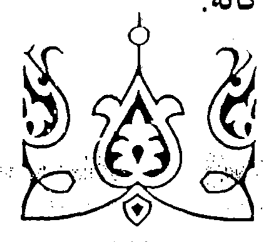
ولم يعقّب متحدثي إلا بكلمتين:

- **دعني أفكر....... كي أجـــدد** .

قال:

- **شكراً لك والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.**

- **والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.**



المراجع

١- القــرآن الكريم.

٢- **السيرة النبوية**، ابن هشــام.

٣- **السيرة النبوية**، ابن كثير.

٤- **السيرة النبوية**، أبو الحسن الندوي.

٥- **الجهاد في الإسلام**، أ.د./ على جمعة.

٦- **صفوة التفاسير**، محمد علي الصابوني (٣ أجزاء).

٧- **القرآن وقضايا الإنسان**، د. عائشة عبد الرحمن.

٨- **القطوف الجياد من حكم وأحكام الجهاد**، عبد الرازق بن عبد المحسن البدر.

٩- **عالمية الإسلام**، د. شوقي ضيف.

١٠-**حياة محمد** ﷺ، د. محمد حسين هيكل.

١١-**الحرب والمجتمع القديم**، د. سيد أحمد الناصري.

١٢-**كيف أسلم المغول**، د. محمد علي البار.

١٣-**انتشار الإسلام في القارة الأفريقية**، د. حسن إبراهيم حسن.

١٤-**الخوف من الإسلام**، عطية الويشي.

١٥-**الإسلام والعنف**، يوسف القرضاوي.

١٦-**مشروعية القتال في الإسلام**، د/ محمود محمد بابللي.

١٧-**الجهاد في الإسلام قديماً وحديثاً (مترجم)**، رودلف بيترز.

١٨-**العسكرية الإسلامية**، لواء أ.ح/ شوقي محمد بدران.

١٩-**حضارة العرب (مترجم)**، د. غوستاف لوبون.

٢٠-**لماذا يخافون الإسلام**، مصطفى كامل مصطفى.

٢١-**مبادئ التعايش السلمي في الإسلام**، أ.د. عبد العظيم المطعني.

٢٢-**الإسلام في مرآة الفكر الغربي**، د. محمود حمدي زقزوق.

٢٣-**الحب والجمال في الإسلام**، أ.د. محمد سيد المسير.

٢٤-**الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة**، جمال البنا.

٢٥-**الجهاد**، جمال البنا.

٢٦-**نظرة عالمية نحو الإسلام**، عبد اللا سلامة الجهني.

٢٧-**الإسلام كبديل (مترجم)**، د. مراد هوفمان.

٢٨-**منهج الإصلاح الإسلامي في المجتمع**، د. عبد الحليم محمود.

٢٩-**موسوعة التاريخ الإسلامي**، د. أحمد شلبي.

٣٠-**المجددون في الإسلام**، عبد المتعال الصعيدي.

٣١-**فوبيا الإسلام في الغرب**، د. سعيد اللاوندي.

٣٢-**في السيرة النبوية**، عبد الحليم الجندي.

٣٣-**انتشار الإسلام في أوروبا**، أ.د. عبد الحميد حامد سليمان.

٣٤-**محمد رسول الله (خلاصة سيرته)**، محمد بن إبراهيم الحمد.

٣٥-**الإسلام الفاتح**، د. حسين مؤنس.

٣٦-**الإسلام في عيون غربية**، د. محمد عمارة.

٣٧-**الجهاد والفدائية في الإسلام**، حسن أيوب.

٣٨-**انتشار الإسلام بحد السيف** (**بين الحقيقة والافتراء**)، د. نبيل لوقا بباوي.

٣٩-**الإسلام والتعايش السلمي مع الديانات الأخرى**، د. نبيل لوقا بباوي.

٤٠-**عبقرية عمر**، عباس محمود العقاد.

٤١-**الله**، عباس محمود العقاد.

٤٢-**الإسلام والحضارة الإنسانية**، عباس محمود العقاد.

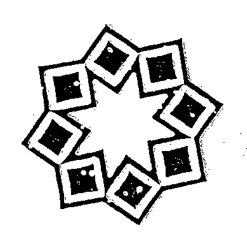
٤٣-**الإسلام دعوة عالمية**، عباس محمود العقاد.

٤٤-**حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**، عباس محمود العقاد.

٤٥-**انتشار الإسلام وآداب الحرب**، مستشار محمد أحمد خضر.

٤٦-**الأصالة والمعاصرة في الفكر الإسلامي**، أ.د. محمد رأفت سعيد.

٤٧- **هذا هو الإسلام** (رؤية صحيحة لمفاهيم عصرية)، د. عبد الله شحاته.



الفهــرس

الإسلام دين سلام

﴿حوار مع مستشرق﴾

حول مفهومه ومكانته وغاياته وآثاره
والحاجة إليه في الوقت الحاضر

تأليـــف

عادل محمد فهمي مراد

القاهرة ج.م.ع

"لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا"

حديث شريف